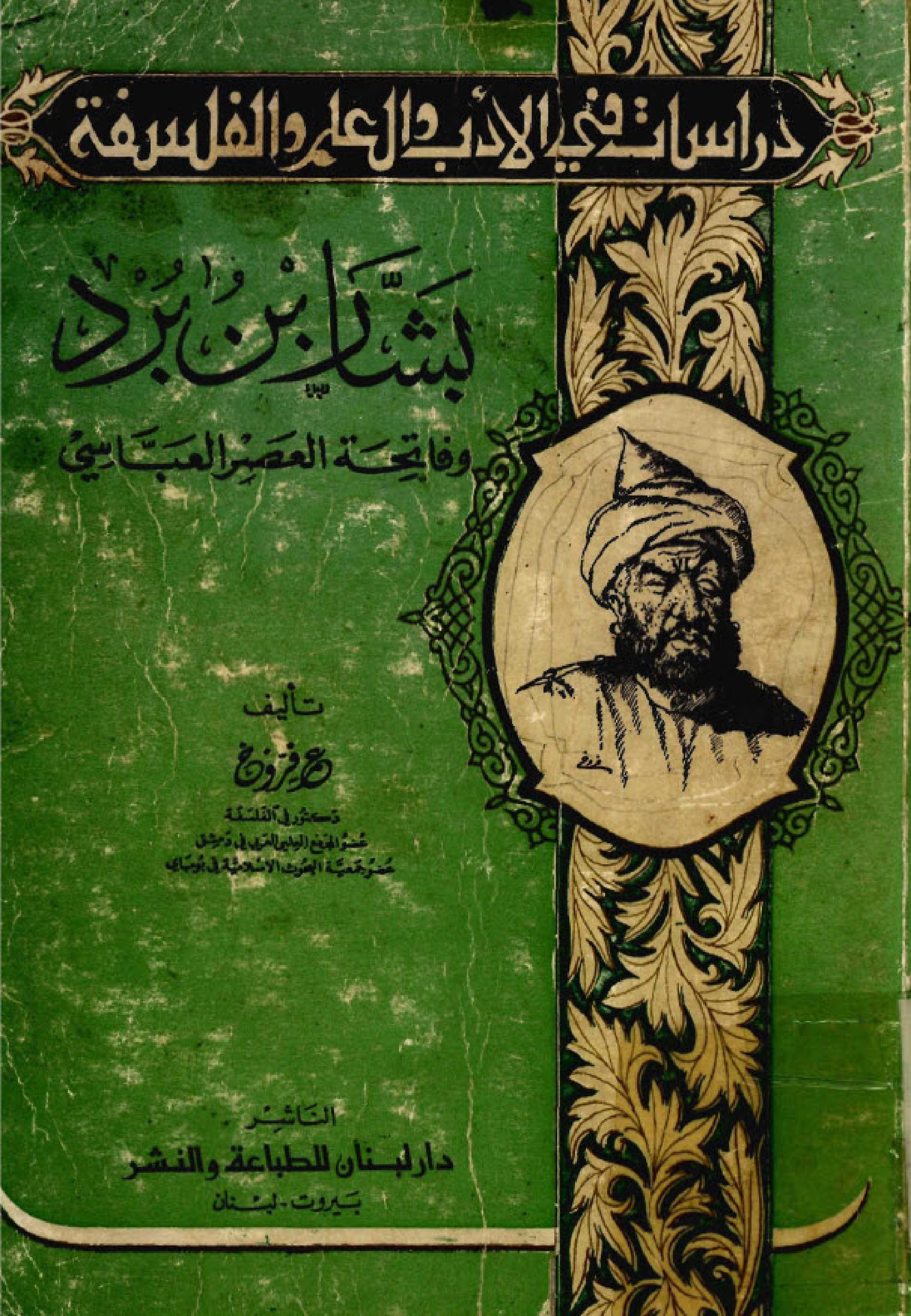

دراسات في الأدب والعلم والفلسفة
بشار بن برد
وفاتحة العصر العباسي
تأليف
ع فروخ
دكتور في الفلسفة
عضو المجمع العلمي العربي في دمشق
عضو جمعية البحوث الإسلامية في بومباي
الناشر
دار لبنان للطباعة والنشر
بيروت - لبنان

بشار بن برد



إذا كُنتَ في كلِّ الأمورِ مُعاتباً صديقَكَ لم تلقَ الذي لا تعاتِبُهْ
فعِشْ واحداً أوْ صِلْ أخاكَ فإنّه مُقارفُ ذَنْبٍ مرّةً ومُجانِبُهْ

دراسات في الأدب والعلم والفلسفة



تأليف
عمر فروخ
دكتور في الفلسفة

الناشر
دار لبنان للطباعة والنشر
بيروت - لبنان

بيروت

١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

مَصَادر وَمَراجِع لِدِرَاسَة شِعر بَشّار

لم يكن بشّارٌ شاعراً مُكثراً فحَسْبُ ، بل كان من فحولِ الشعراء ومن أولئك الذين طبعوا الشعرَ العبّاسيّ بطابَعه المعروفِ فهو رأسُ المُحْدَثين أي أولُهم . ولكنّ اهتمام الباحثين به وبشعره لم يكنْ يتّفق ومَقامَه في تاريخ الأدب العربي . إنّ الاستاذ الدكتور يوسف هل (١٨٧٥ – ١٩٥٠) لم يكتب عنه في الطبعة الأولى من دائرة المعارف الإسلامية سوى بضعة أسطر [١] . وكذلك المستشرق كارل بروكلمن (١٨٦٨ – ١٩٥٦) لم يذكُرْ من مصادر دراسته ومراجعها ما تستحقّه شهرته ومكانته [٢] . ولعلّ أكبر الظالمين له كان الأستاذَ أنيسَ المقدسيّ (١٨٨٥ – ١٩٧٧) فإنّه لم يفسحْ له مكاناً في كتابه القيّم « أمراء الشعر العربي في العصر العبّاسي » .

ومَعَ ذلك فقد خصّ بشّاراً نفرٌ من المستشرقين بدراسات جزئية أمثالُ فريتز كرنكو (١٨٧٢ – ١٩٥٣) وفرانشيسكو غابرييلّي (وهو يحيا إلى

---

(١) Eng. ed. I 671.

(٢) GAL I 72 u. Suppl. I 110.

أيامنا) ودي ماتيو ، على ما تراه في ثنايا هذا البحث . وكذلك كتب عنه ابراهيمُ عبد القادر المازني (١٨٩٠ – ١٩٤٩) أشياءَ كثاراً [١] كما كتب عنه محمود عبّاس العقّاد (١٨٨٩ – ١٩٦٤) في كتابه « مراجعات في الأدب والفنّ » وطه حسين (١٨٨٩ – ١٩٧٧) في الجزء الثاني من « حديث الأربعاء » وعبد القادر المغربي (ت ١٩٥٦) في مجلّة المجمع العلمي العربي بدمشق [٢] . غير أن كلّ ما كتب عن بشّار كان قاصراً لقلّة المصادر التي كانت معروفةً يومذاك ممّا يتعلّق بشعرِ بشّار خاصّة . والذي يبدو أنّ الذي ورد في كتاب الأغاني (دار الكتب المصرية ٣ : ١٣٥ – ٢٥٠ ثمّ أخبار بشّار وعبدة ٦ : ٣٤١ – ٣٥٢) هو أوسع ما وصل إلينا عن بشارٍ وعن شعره .

وإذا تقصّى أحدُنا هذا الاهمالَ وذلك اليُسْرَ في معالجة نواحي شاعريّة بشارٍ ، وجد أن ذلك يَرْجِعُ إلى سببٍ واحد هو ضَياع ديوان هذا الشاعر الكبير . لقد جنى على ديوان بشّارٍ شيئانِ أوّلُهما كَثْرةُ شِعرِه، فقد قال أبو الفرج محمّد بن إسحاق بن النديم (ت ٤٣٨ هـ = ١٠٤٧ م) في كتاب « الفِهْرِست » (ص ١٥٩) : « .... فإنّ شِعرَه لم يجتمعْ لأحدٍ ، ولا احتوى عليه ديوانٌ . وقد رأيتُ منه نحوَ ألفِ وَرَقَةٍ » (يَقْصِدُ عشرينَ ألفَ بيتٍ) . وثاني ذَيْنِكَ الشيئين اتّهامُ بشّارٍ بالزندقة – ولم تكُنْ تُهْمَتُهُ بالزندقة باطلة – وقَتْلُه بسبب ذلك ممّا جعل الناس ينصرفون عنِ الاهتمام بشعرِه الكثير . فكان ذلك أيضاً من الأسباب التي أدّتْ إلى ضَياع ما ضاع من شعره . فاذا نحن أضفنا إلى كلّ ما تقدّم كَثْرةَ الفُحْش والإقذاع (ما يقبُحُ من الأعمال ومن وصفها) في شعر بشّارٍ لم يكن منَ المُسْتغرَب أن يصيرَ حظٌّ بشّارٍ من قِلّة العِناية إلى ما صار اليه فِعْلاً .

---

(١) جمع المازني خلاصة ما كان قد كتبه في العدد الثالث عشر من سلسلة أعلام الإسلام .

(٢) الجزء الثاني عشر من المجلد التاسع (رجب ١٣٤٨ ، وكانون الأول – ديسمبر ١٩٢٩) .

وبعدَ هذا الإهمال ِ الطويل نَشَطَ نفرٌ إلى البحث عن مخطوطاتِ ديوانِ بشّارٍ ومجاميع شعرِه فوَجَدَ محمّدُ الطاهرُ بنُ عاشورٍ (١٩٠٩ – ١٩٧٠) في مكتبته في تونسَ مجلّداً من شعر بشّار فيه الأحرُفُ الأولى من الهَمْزة إلى الدال المُهْملة وبعضُ حرف الراء . وقد طُبِعَ هذا الجزء الكبير (وفيه ستّةُ آلافٍ وثمانيةٌ وعشرون بيتاً) في القاهرة (١٣٦٩ هـ = ١٩٥٠ م وما بعد) وعلّق عليه ووقف على طبعه محمّدُ رُفعت فتحُ الله (الأستاذ في كلّيّة اللغة العربيّة بالجامع الأزهر) ومحمّد شوقي أمين (المحرّر في مجمع فؤادِ اللغةِ العربية يومذاك ، والأمين العامُّ لمجمعِ اللغة العربية في القاهرة اليوم) .

والمخطوطةُ التي أعدّها محمّدُ الطاهر بن عاشور للطبع قد نالت عنايةً في الضبط وشُرِحت أبياتُها شرحاً وافيا يدُلُّ على مقدرةٍ في المعرفة باللغة وعلى إحاطةٍ بتاريخ الأدب وبَصَرٍ بعلوم البلاغة وبالموازنة بينَ المدارك . وقد كان في ذلك كلّه من الجُهْدِ ما يَعْجِزُ عن مثلهِ كثيرون . واختار محمّدُ الطاهر بن عاشور أن يُبْرِزَ هذه المخطوطةَ على أصدقِ وُجوهِها فكان يُثْبِتُ في المتْن كلَّ ما فيها حرفاً حرفا ، ولو كان بعضُه باديَ الخطأ ، ثمّ يُعلِّقُ على ما يحتاج إلى التعليق في الحواشي بالرأيِ الناضج والموازنة الحكيمة . ومعَ هذا فإنّ إخراجَ هذا الديوانِ بالطبع لم يَخْلُ من هَناتٍ يسيرةٍ هنا وهنالك سأشيرُ إلى بَعْضِها في مكانِه بعد قليل .

وجعل محمّد الطاهر بن عاشور لهذا الجزء من الديوان مُقدّمةً وافيةً (ص ٣ – ٩٣) في حياة بشّارٍ وأحواله وفي شعرِه عامّةً وفنونِ شعره خاصّةً وفي مكانته هو ومكانةِ شعرِه في تاريخ الأدب . ثم عرّجَ على نطاق النَقْدِ (نقد بشّارٍ لشعر غيره ونقد النقّاد لشعر بشّار) . وكذلك تكلّم في هذه المقدّمة (ص ٨٢) على الأعلام الواردة في شعر بشّار ، سواءٌ منها تلك التي هِيَ أسماءُ ممدوحين ومَهْجُوِّينَ أو أسماءُ محبوباتٍ أو أسماءٌ مرتَجَلَةٌ موضوعة (لا حقيقةَ لها) ، مثل « أبي مجلز » وهو اسمٌ لا حقيقةَ له ذَكَرَهُ

بشّارٌ عَرَضاً في أثناء التعبير عن فكرة له .

ومحمّد الطاهر بنُ عاشور قد عُنِيَ أيضاً بوضع مُقَدِّمات للقصائد في تعريف الذين قيلت القصائد الكبرى فيهم . ولا شكّ في أن تقديمَ القصائد بِجُمَلٍ مختلفةٍ من نِطاق التاريخ ونطاق الاجتماع يساعد على فهم تلك القصائد وعلى فهم عبقريّة بشارٍ نفسِه . ولقد كنت أنا أيضاً قد عُنيتُ بشيء من ذلك – قبل أن تُتاح لنا معرفةٌ واسعة بشعر بشّار – كتلك التي أتيحت لنا بعد أن طَبَعَ محمّد الطاهر بن عاشور النسخةَ التي وَجَدها في مكتبته . غير أنّني قد فعلتُ ذلك وأنا يَقِظٌ لئلاّ أغْرَقَ في طُوفانِ التاريخ الذي عناه أديبُنا عمرُ فاخوري (ت ١٩٤٦/٤/٢٥) حينما اعتقد أن الشعر يُفْهَمُ بالذائقة والشعور لا بالشُروحِ والحوادثِ التاريخية (الفصول الاربعة ٤٣ – ٦٠) . وأديبُنا على حقٍّ فيما قاله إلى حدٍّ كبير . غير أن الفصل في ذلك كلّه راجعٌ إلى طبيعة الشعر الذي ندرُسه . إن قولَ عُمَرَ بن أبي ربيعة :

ثمّ قالوا : تُحِبُّها ؟ قلتُ بهراً : عَدَدَ النجم والحصى والتُرابِ ،

أو قولَ جريرٍ :

إنّ العيونَ التي في طَرْفِها حَوَرٌ قَتَلْنَنا ثمّ لم يُحْيِينَ قَتْلانا :
يَصْرَعْن ذا اللُبِّ حتى لا حَراكَ به وهُنّ أضعفُ خَلْقِ الله إنسانا .

لا تحتاج إلى مُقدّمةٍ تاريخيةٍ لوضُوح معناها في العاطفة الإنسانية عامّة .

وأمّا قولُ الفَرَزْدَقِ :

أمّا بنوه فلم تنفَعْ شَفاعتُهم ؛ وشُفِّعَتْ بِنْتُ مَنْظورِ بنِ زبّانا :
ليس الشفيعُ الذي يأتيك مؤتزراً مثلَ الشفيعِ الذي يأتيك عُريانا ؛

وأمّا قولُ أبي تمّام :

إذا افتخرتْ يوماً تميمٌ بقَوْسِها وزادتْ على ما وَطّدتْ من مناقبِ ،
فأنتم بذي قارٍ أمالتْ سيوفُكم عُروشَ الذين استرهنوا قوسَ حاجبِ ؛

فانّهما يحتاجان إلى مُقدّمات كثيرة . كانَ الفَرَزْدَقُ وزَوْجُهُ النَّوار قد تَشاقّا ، فاحتكما إلى عبدِ اللهِ بنِ الزُبير . واتّفق أن نَزَلَ الفرزدقُ ضيفاً على أبناء عبدِ الله بن الزبير ، أمّا النّوارُ فنزلتْ ضيفاً — بطبيعة الحال — على امرأةِ عبدِ الله بن الزبير وهي بنتٌ لمَنْظورِ بن زبّان (وكان منظورُ بنُ زبّان قد تزوّجَ إحدى نِساء أبيه — بعدَ موتِ أبيه — على ما كان يَفعلُ الجاهليّون . ولكنَّ عُمَرَ بنَ الخطّابِ فرّق بينَ منظورٍ وامرأة أبيه) . وكذلك اتّفق أن حكم عبدُ الله بن الزبير للنّوار على الفرزدق ، فقال الفرزدقُ هذين البيتين .

وأمّا قِصّةُ قَوْسِ حاجبِ بنِ زُرارةَ فهي أن بني تميمٍ قومَ حاجبِ ابنِ زُرارةَ كانوا ، في الجاهلية ، قد رَعَوْا مواشِيَهُمْ في غيرِ المناطق التي كان كِسرى قد خصّهم بها . غَضِبَ كسرى وأرادَ منعَ بني تميم من الرعي في جميع المناطق . وذهبَ حاجبٌ إلى كِسرى — وكان لحاجبٍ مكانةٌ ساميةٌ في قومِه وفي سائرِ القبائل — ووَعَدَهُ بألاّ يعودَ بنو تميم إلى الرَعْيِ في غير المناطق التي لهم (على شواطىء الفُرات) . وطلب كِسرى من حاجبٍ رهْناً لِضَمان تنفيذ بني تميم ما وَعَدَ به سيّدُهم حاجبُ بن زُرارة . فأعطى حاجبٌ قوسَه رَهْناً . قَبِلَ كِسرى الرهنَ ووفى بنو تميمٍ بما كان قد وعد حاجبٌ . ثمّ دارتِ الأيام وخاضتِ القبائلُ العربية حرباً مع الفرس في يومِ ذي قارٍ وانتصرت على الفُرْسِ . ثمّ كان الفتحُ الإسلامي وقُضِيَ على مُلْكِ فارس .

فبغيرِ هذه الشروحِ الطِوالِ لا يُمْكِنُ أن يَفْهَمَ القارىءُ العاديُّ بَيْتَيِ الفرزدقِ الأمويّ ولا بَيْتَيْ أبي تمّامٍ العبّاسيّ .

من أجل ذلك كلّه يحسُنُ أن تقومَ الدراسة الأدبية — في عددٍ من جوانبها — على أُسُسٍ تاريخية ، ولكنْ يجب ألاّ نقبل من كلِّ إنسانٍ « أن يُجرّبَ ذوقه » في فَهْمِ قلائدِ الأدب العربي إلاّ بعد أن يتزوّدَ بمعرفةٍ

صحيحة من قواعدِ اللغة وأوجهِ البلاغة وروايات التاريخ . ويَقيني أنّ أديبَنا الكبيرَ عمرَ فاخوري لم يتَصِلْ إلى هذه الذائقةِ الّتي كانتْ له في فَهْمِ الأدب وفي التعبير عنه إلاّ بعدَ أن مرّ بأدوارٍ متطاولة من « سِيَرِ التاريخ » ثمّ تمرّسَ برِياضاتٍ مُضْنِيَةٍ من « الشروح والتعليقات » وسَهِرَ لياليَ سُوداً في « حلّ ألغاز » النحو والبلاغة . أنا أعلم أن عُمَرَ فاخوري لم يقْصِدْ ذلك ، ولكنّي أخشى أن يكثُرَ الذين يمكن أن يفهموا ذلك عنه . وإذا نحن قُلْنا يوماً بالذوق ، فإنّما نقولُ بالذوق المثقّف بالتاريخ والمهذّب بالفنون والمرتاض بأساليب النحاة والبلغاء .

ويتردّدُ مُحمّدُ الطاهرُ بنُ عاشور (ص ٣٠) في الحكم على بشّارٍ فيما يتعلّق بغزَلِه (يَعْني ابنُ عاشورٍ الانغماسَ في الغزَلِ لا قوْلَ الغزل) : أهو كلامٌ من خيالِ شاعرٍ وتقليدٌ لعادة الشعراء في القول في كلّ فنّ والمبالغةِ في القول، أمْ هو حقيقةٌ من حياةِ الشاعر ووَصْفٌ لما كان يقوم به . وأحبَّ محمّدُ الطاهر بن عاشور ان يَفْصِلَ في هذا الأمر فقال (ص ٣١) :

« والذي أُعلّلُ به غرامَ بشّارٍ انّه كان ذا نفسٍ خليعة تحبّ المُجون ، فكان قد راض نَفسه على العِشق إيفاءً لها بشعائر المُجون ، وجعل طريقةَ عِشقه حُسْنَ النغمةِ ورقّة المَزْج ولينَ الملمس وحلاوة الحديث ، ودرّب لنفسه ذلك الارتياض حتّى صارَ له مَلَكَةً وسَجيّة . فكان عِشقُه حقيقةً غيرَ ادّعاءٍ ، وهو يتوسّلُ بذلك إلى ان يُجيد النسيبَ ... » .

يَقْصِدُ محمّدُ الطاهرُ بن عاشور انّ بشّاراً كان فِعْلاً مُحِبّاً ماجناً ، وان حُبّهُ الماجنَ قد ساعده على ان يُجيدَ الغزل ـــ هذا النوع من الغزل ـــ وعلى ان يكونَ الغزلُ كثيراً في ديوانه .

وتكلّم ابنُ عاشورٍ على مذهبِ بشّارٍ السياسيّ وذكر ان بشاراً كان يُعْلِنُ تَشَيُّعَه للأمويّين ـــ في أيامِ الدولة الأمويّة ـــ وبشّارٌ ، كما نعلم ،

من مُخَضْرَمي الدولتين (الأمويّة والعبّاسية) . ولكن بشّاراً انتقلَ مَعَ مجيء الدولة العبّاسية إلى التشيّع للعبّاسيّين . ومن القصائد التي يبدو فيها تشيّعُه القويُّ للأمويّين قصيدتُه البارعة « جفا وُدُّه فازْوَرَّ أو مَلَّ صاحِبُهْ » .

هذه القصيدةُ بارعةُ المعاني متينةُ السَّبْكِ عاليةُ النَفَس . إنّها من الطور الأمويّ أرادَ بشّارٌ أن يمدَحَ بها يَزيدَ بنَ عُمَرَ بنِ هُبيرةَ واليَ العِراقين (الكوفة والبصرة) من قِبَلِ مَرْوانَ بنِ مُحمّدٍ آخِرِ خُلفاءِ بني أميّةَ في الشام . وقد بدأتْ وِلايَــةُ يزيدَ سَنَةَ ١٢٨ هـ (٧٤٥ م) . ولكنّ بشّاراً لم يذكُرْ يزيدَ في هذه القصيدة ، بل ذَكَرَ مروانَ . والقصيدة في الديوان (لناشره محمّدِ الطاهر بن عاشور ، القاهرة ١٩٥٠ ، ١ : ٣٠٥ – ٣٢٣) خمسةٌ وثمانون بيتاً . وكنتُ أنا قد جَمَعْتُ منها (عام ١٩٤٤) واحداً وثلاثينَ بيتاً من مصادرَ مختلفة أبياتاً مُتفرّقةً وأردتُ أن أرتّبَها ترتيباً منطقيّاً فجاء ترتيبي – إذا نحن عَدَدْنا الترتيبَ الذي في الديوان (١ – ٨٥ بيتا) هو الأصل – كما يلي :

١ – ٢ – ٢ ب (بيتٌ غير موجود في الديوان) – ٥ – ٦ – ٨ – ٩ – ٧ – ١٠ – ١٠ ب (بيت غير موجود في الديوان) – ٤٠ – ٤١ – ٤٨ – ٤٩ – ٤٩ ب (بيت غير موجود في الديوان) – ٥٢ – ٥٨ – ٦٤ – ٦٥ – ٥٧ – ٢١ – ٢٢ – ٢٥ – ٥٩ – ٦٠ – ٥٣ – ٥٦ – ٦١ – ٦٢ – ٦٣ – ٥٥ .

أمّا الأبيات التي ليستْ في الديوان (وهي موجودة في دراستي) فهي :

فقد رابَني قَلْبي يُكَلِّفني الصبا ؛ وما كلَّ حينٍ يتبَعُ القلبَ صاحِبُهْ .
ومن ذا الذي تُرضي سجاياه كُلُّها؟ كفى المرءَ نُبْلاً أن تُعَدَّ مَعائبه .
رُوَيْداً تَصاهَلْ بالعِراقِ جِيادُنا ، كأنّكَ بالضَحّاكِ قد قام نادبه .

---

(١) راجع ، تحت ، ص ١٣٨ – ١٣٩ .

والضحّاكُ بنُ قيسٍ الشيبانيُّ رئيسٌ من الخوارج ثارَ على الأمويّين في أيامِ مروانَ بنِ محمّدٍ ولكنه انهزمَ وقُتِلَ سَنَةَ ١٢٩ هـ .

ومِنَ المُستَغرَب ألا تكونَ هذه الأبياتُ موجودةً في الديوان مَعَ جمالها وقيمتها الأدبية (في البيتين الأوّلين) وقيمتها التاريخية (في البيت الثالث) .

وهنالك شيءٌ آخَرُ : هو أن ناشرَ الديوان قد قَبِلَ أحياناً رِواية مَضْعوفةً أو شَرَحَ هو شَرْحاً مَرْجوحاً . من ذلك مثلاً :

وجيشٍ كجُنْحِ الليل يزحَفُ بالحَصى
وبالشَوْل والخَطّي حُمرٌ ثَعالِبُهْ .

الشول هي الناقةُ التي ترفَعُ ذَنَبَها إذا كانت حائلةً تُريدُ الفَحْلَ (من تفسير الناشر ، ص ٣١٢) ولا وَجْهَ لها هنا . والصوابُ الشَوْكُ (السِلاح) . وأثبتَ الناشر « حمرٌ ثعالبه » فتكون القراءة « ... يزحَفُ بالحصى . والخطّيُّ حمرٌ ثعالبه » ، وذلك تأوُّلٌ بعيد . والأصوبُ أن تكونَ القراءةُ : « جيشٌ يزحَفُ بالحصى (بالعددِ الكثير) وبالشَوْك (السلاح الكثير) وبالخَطّي (الرماح) حُمْراً (منصوبةً على الحال) ثعالِبُهْ (النِصالُ في رُؤوس الرماح — عليها الدمُ من قِتال الأعداءِ والانتصار عليهم) .

وفي البيت : (ص ٣١١) :

فلمّا « تولّى » الحرُّ واعتصرَ الـثّرَى
لَظى الصيفِ من نَجْمٍ تَوَقّدَ لاهِبُهْ ؛

فَهِمَ الناشرُ « تولّى » بمعنى « ذَهَبَ ، راح ، انقضى » . وعلّقَ على البيتِ تعليقاً طويلاً (حتّى يُوَفّق بين « تولّى الحرّ » بمعنى « انقضى » وبين « لظى الصيف » ، فلم تتهيّأ له صلة مقبولة . ومعنى « تولّى الحرّ » هنا « أصبَحَ والياً ، مُستولياً » أي اشتدّ الحرُّ .

وفي هذه القصيدة أشياءُ أُخرى من هذا القبيل : في اختيارِ الرواياتِ وفي تفسير الكلمات. ولكنَّ هذه الهـَناتِ اليسيرةَ لا تقدَحُ كثيراً في إعداد هذا الديوانِ للنشر في جانبِ الحسنات الكثيرة التي انطوى عليها .

* * *

لا أستطيع أن أزعُمَ أن نَشْرَ قِسمٍ كبيرٍ من شعر بشّار لا يُبدّل شيئاً من خصائص بشارٍ عند الدراسة ، ولكنّي أستطيعُ أن أقولَ إنّ ذلك لم يُبَدِّلْ كثيراً في فَهْمِنا الأولِ لبشّارٍ ولشعرِ بشّار ولخصائصِ بشّارٍ العامّة . إنّ ذلك راجعٌ إلى أن الدراساتِ الأدبية لا تقومُ في العادةِ على كلّ شيءٍ في نِتاج الأديب ، بل تقومُ على مُختاراتٍ من نُصوصِ أدبه . وما كانَ بشارٌ شاذّاً عن ذلك .

وتبدّت لي خاصةٌ :

لقدِ اشتهرَ عن بشّارٍ أنّه يرى الحُبّ من طريق السمع (الأذُنِ) كما يراه غيره من طريق البَصَر (العين) . والأمرُ في ذلك مشهور . غيرَ أنّي رأيتُ بشاراً الآنَ كثيرَ الغَرام بالعين — يذكُرُها في أحوالٍ كثيرةٍ وفي صورٍ مختلفة . فما الذي لَفتَهُ عن العين إلى السَّمْعِ في أمرِ الحبّ ، أمرِ حُبّهِ ، ثمّ جعَلَه يعود فيتعلّق بالعينِ في أمورٍ كثيرة ؟

لا شكّ في أنّ بشّاراً الأكمَهَ (الذي وُلِدَ أعْمَى) ما كان يَعْرِفُ أوصافَ الجمال التي يَعْرِفُها المبصرون — على اختلاف أراء المُبصرين في الجمال . ولا ريبَ في أنّه كان يُغْرَمُ أحياناً بنساءٍ لا يَتمتّعْنَ من أوصافِ الجمال البديعي بكثيرٍ أو قليل . لقد كانَ أوّلَ دواعي العشقِ في بشّارٍ حاجةُ بشّارٍ إلى المرأة لا ما في المرأة نفسِها من الصِفات المُحبّبَةِ إلى النفوس . وحُبّاً في ألاّ يُقِرَّ بشّارٌ على نفسه بأنّه يعشَقُ نساءً لَسْنَ خليقاتٍ بالعِشق ، أحبَّ أن يُلغِيَ في « هذا العشقِ » دَوْرَ العين .

أمّا في ميادينِ الحياةِ الأخرى – غيرَ ميْدانِ العشق البَشَري – فكان للبصرِ وللعين مكانهُما المألوفُ عند المبصرين . من ذلك قولُ بشّار (ص ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٣ ، ١١٧ ، ١١٩) :

* علـى عَيْنَيْ أبي أيّـوبَ منّي غطاءٌ . سوف ينكشفُ الغطاءُ .
هجرتُ الآنساتِ ، وهُنَّ عندي كماءِ العين ، فَقْدُهُما سَواءُ .
* حَيِّيا ، صاحِبيَّ ، أمَّ العَلاء ، واحذرا طَرْفَ عَيْنِها الحَوْراءِ .
انّ في عَيْنِهـا دَواءً وداءً لِمُلِمٍّ . والداءُ قبلَ الدواءِ .
يومَ قالتْ : اذا رأيتُكَ في النو مِ خَيالاً أصَبْتَ عَيْني بداء .
* نام عَنّي صَحْبي ولا أعْرِفُ النو مَ ؛ بعَيْني قَذىً وبالقلبِ داءُ .
أنَسيتَ قَرْقَرَ العَفافِ وفي العَيْـ ـنِ دَواءٌ للناظرين وداءُ .
وسألتُ النساءَ : أبْصَرْنَ ما أبْـ صَرْتُ مِنْ حُسْنها؟فقالَ النساءُ :
دونَ وجهِ البغيضِ وَحْشَةُ هَوْلٍ ، وعلى وجهِ مَنْ تُحِبُّ البَهاءُ .

هذه أبياتٌ لم أتَخيّرْها ، ولكنّي أخَذْتُها عَفْواً من أوّلِ الديوان من « قافية الهمزة » ، وكلُّها تقولُ في العين ما يَقوله المبصرون . وليستِ العين هنا مُهْملةً كما أراد بشّارٌ أن يُهْمِلَ دَوْرَها في أحوال عشقِه (١) .

* * *

---

(١) ومن ذلك قوله ، وهو عجيب في هذا الباب ، اذ هو ينسب إلى البصر بالعين تأثيراً في نفسه :

أنت التي تشتفي عيـني برؤيتهـا وهن عندي كمـاء غير مشروب

ويبدو أن هذا الموضوع قد لفت نظر أندريه رومان فكتب فيه بحثاً. فمن شاء التوسع في هذا الموضوع الطريف فليرجع اليه :

— A propos des vers des yeux et du regard dans l'œuvre du poète aveugle Bassâr b. Burd, *in* Mélanges de l'Université Saint-Joseph, t. XLVI, Beyrouth 1970.

وقد جرى على بشّارٍ ما جرى على مُعْظَمِ الشعراء : ضاعَ شيءٌ من شعره ، وربّما نُسِبَ بعضُ شعره إلى غيرِه . وفي كتابِ الأغاني (٣ : ١٥٠) بيتٌ مشهورٌ لبشّار في مديحِ خالدِ بنِ برْمَكَ :

لَمَسْتُ بكفّي كَفَّه أبْتغي الغِنى ولمْ أدْرِ أن الجودَ مِنْ كَفّهِ يُعدي .

هذا البيتُ يُنْسَبُ أيضاً (الأغاني ٣ : ١٥١ ، راجع ١٨ : ٩٤) إلى ابنِ الخيّاط في مديحِ المَهْدِي العباسي (في أيام بشار) .

ولا شكّ في أن بشّاراً كان قُدْوَةً في النظم لكثيرين في أوائلِ الدولة العبّاسيّة ، فانّ نفراً من الشعراء منهم أبو نُواسٍ وسَلْمُ بنُ عَمْرو الخاسِرُ وداوُودُ بنُ رُزينٍ كانوا يَصبّون (معانيَهم) على قَوالبِ معاني بشّار . ويبدو أن أبا نُواسٍ على شُهرته كان يحتذي أشياءَ من معاني بشّارٍ ومن تراكيبه . ولكنّ هذا موضوعٌ يحتاجُ إلى بَسْطٍ تَضيقُ عنه هذه المُقدّمَة وهذهِ الدِراسةُ أيضاً .

في الثامن والعشرين من جمادى الأولى ١٣٩٨ — عمر فروخ
١٩٧٨/٥/٦ .

فاتحة العصر العبّاسي

انتقال الشعر من البداوة المصطنعة إلى الحضارة المطلقة

•

بانتقال الخلافة من دمشقَ إلى بغدادَ انتقل الشعرُ انتقالاً ظاهراً من بداوة مصطنعةٍ إلى حضارةٍ مطلَقة ، ومن صلابةٍ دينيةٍ إلى تهتّكٍ وزندقة ، ومن أسلوب جافٍّ مملّ في بعض الأحيان إلى كلماتٍ عذبة سهلةٍ وأسلوب متناسق مرقص في الأعم الأغلب . ولقد كان الشعر في الجاهلية سليقةً ، قاله مَنِ اشتهر به ومنْ لم يشتهرْ به ؛ ثم أصبح في الدولة الأموية مقدِرةً لم يتغلّبْ به إلا من أوتِيَهِ على غَلَبة وفخر ، وعلى حسب قديم ونسب بعيد . أما الآن فقد أضحى الشعر فناً يعيش له صاحبه لا يهتم بغيره . كان الشاعر القديم ، ولا سيما الأمويُّ ، يذكر في مدائحه مثلاً ما يَودّ الممدوحُ إظهارَه ، أما الآن فقد أصبحتِ المدائح ، بَلْهَ سائرَ القصائد ، مرآةً لنفس الشاعر ليس فيها من المديح إلا ما يكفُل لصاحبها قَدْراً من المال ينفقه على حياته الخاصة .

وهكذا كثرت أغراض الشعر وتطوّرتْ واتسعت ، فتعددتْ ألوان المديح والهجاء والرثاء ، ودخل فيها كُلِّها عناصرُ جديدةٌ استمدها الشعراء من بيئتهمُ الجديدة . و « دالتْ دولةُ الجملِ والطّلل » ، وقام على أنقاضها « دولة الرياض والحسان » ؛ وزالت من الشعر المطبوع بالطابع الجديد آثار

التقليد والاحترام للأقدمين وحلَّ مكانها النفور من حياتهم وأغراضهم ، لا منهم ، وبدأ الابتكار . ثم مات التستُّر والكِناية وظهر مكانَهما التصريحُ وقلة المبالاة ، كل ذلك يمثّلُه قولُ أبي نُواسٍ :

ألا فاسْقِني خمراً وقلْ لي : هِيَ الخمرُ ،
ولا تَسْقِني سِرّاً إذا أمكنَ الجهرُ !

وكذلك كان هنالك تطوّرٌ آخرُ في الشعر ، فإن الأوزان تنوعت ، وأخذ الشعراء يميلون ميلاً ظاهراً إلى الأوزانِ القصيرة ؛ وكَثُرَ نظمُ المقاطع في أبياتٍ معدودة وفي أغراضٍ محدودة . وقد أحبَّ الشعراء العباسيون عموماً القوافيَ التي كانت إلى ذلك الحين مهجورةً أو شبه مهجورة ، فَبَنَوْا بعض مقطّعاتِهم على ما عَذُب من الذال والطاء والضاد ، فلم تَنفِرْ في سمع أحدٍ ، ذلك لأنهم لم يُطيلوا القصائدَ حتى يُضطرّوا إلى الاستعانة بقوافٍ شاذة غريبة .

كل هذا كان من أثر البيئة الجديدة التي سأبرز أشهرَ خصائصها ، وأدُلّ على أهمِّ عوامِلها وعناصرها في بِضع صَفحات قبل النفوذ إلى الكلام على بشّارٍ خاصة .

* * *

إن البيئة العربية لم تنقلبْ فجأةً ، بل بدأ التبدُّلُ فيها منذ خرجت جيوش الفتح إلى أقطار العالم في الشرق والغرب ، ومنذ أخذَ الإسلام يسود بين غير العرب ، ومنذ شرع البَدْو يتخلّوْنَ عن سُكنى البادية ويَتنزِلون الحواضرَ ، ومنذ شُغِف الفاتحون الأعرابيّون بالجمال الآري فتزوجوا الفارسياتِ والتركياتِ والروميات . إلا أن هذا التبدّل التدريجي كان قد بلغ معَ قيام الدولة العباسية مبلغاً لَفَتَ الأنظار وغطى على خصائص الشعر البدوي الأولي . وإليك عدداً في أسبابِ هذا التبدل ونتائجه :

١ ـ احتكاك العرب بغيرهم من الأمم :

لما خرج العرب بفتوحِهِم احتكوا بمدنيّات جديدة كانت من الناحية المادّيّة بلا ريبٍ أرقى من مدنياتهم ، وخصوصاً فيما يتعلق بالمطعم والملبس والمسكن وبآثار العُمران . وكذلك احتكّوا بمذاهبَ دينيةٍ مخالفة لدينهم ، وبفلسفاتٍ متنوعة وبأساليبِ تفكيرٍ متعددة . ومَع أن الإيمان كان يعمُرُ قلوبَهم وزهوَ الفتوح كان يَصْرِفهم عن كل شيء ، والحميّة الدينيةَ في الأكثر والعصبية والقومية في الأقل كانتا توجهان أفكارَهم وتسدّدان خُطُواتِهم ، فإن فِطرتَهُمُ الفائقة لم تكن تغفُلُ عن الموازنة بين ما ألِفوا وما عرَفوا .

ولا ريبَ في أن الفلسفة اليونانية كانت قد بلغتْ في عصرِ زهوها مبلغاً عظيماً لم يبلغ إليه العرب في الجاهلية . وكذلك كانت النُّظم العقلية في الصين والهند وفارس أكثر تعقيداً مما ألفه العرب في جاهليتهم . كل ذلك تأثر به العرب في شعرهم قليلاً وفي نثرهم كثيراً .

أضف إلى هذا كله أن غير العرب لما دخلوا في الإسلام حملوا معهم أساليبَ تفكيرهم واحتفظوا بعاداتهم في الجدال وأخذوا يتساءلون عن كثير مما في الإسلام من فروض وأحكام أو من عقائد : كالتفريق بين ذات الله وصفاته ، وكالبحث في أمر الروح وما تصير إليه ، والبحث في شأن الجنة والنـــار وما فيهما من نعيم وعذاب روحانيّيْن أو جسمانيين ، والبحث بين الإيمان والعمل ، وفي ما إذا كان الإنسان يأتي أعماله مختاراً أم أنه مُجْبَرٌ عليها . وبكلمة واحدة : لقد أراد كثيرون من المسلمين أن يحكُموا في أمور الدين بعقولهم ، فنشأ ما نُسمّيه في تاريخ الفلسفة الإسلاميـــة باسم « الاعتزال » . والاعتزال حركةٌ فكريةٌ بدأت نحو عام ٧٠ هـ (٦٩٠ م) ثم ازدهرت في العصر العباسي . وتقوم هذه الحركة على الفِكرة القائلة : « إذا اختلفَ العقلُ والنقل (يعني الأخبار الدينية) في شأن من شؤون الاعتقاد فيجب أن نتّبعَ العقلَ ». ولقد قام إلى جانب «الاعتزال» حركة فلسفية علمية .

هذه الحركات الفكرية الحرة أزعجت رجال الفِقْه في الإسلام ، كما أزعجت رجال الدين في غير الإسلام من قبلُ ومن بعد ، فكان هؤلاء كلما أبصروا رجلاً يتهاون في شأن من شؤون الدين أو يتساءل عن عقيدة من عقائده عدّوه « زِنديقاً » وأغْرَوُا الدولة بقتله أو إبعاده أو حبسه . على أن « تُهمة الزندقة » في ذلك الحين كانت « وسيلة للتّخلص من الخصوم السياسيين» لا للدفاع عن الدين . فكم من زنديق صحيح كان يمرح في العصر العباسي ويسرح لا يلقى تأنيباً فضلاً عن تعذيب ؛ وكم من تقيّ اتُّهِمَ بالزندقة وقتل بها ! وما ذلك إلا لأنّ الأوّلَ لم يكن خَطَراً على الدولة بينما الثاني كان خطراً عليها . من ذلك أن بشاراً عاش طول حياته زِنْديقاً فلم يتعرضْ له أحد ، فلما هجا وزيرَ المهديّ يعقوبَ بنَ داوودَ وأخاه صالحاً واليَ البصرة أثِيرتْ قضيةُ زندقته وقتل بها . وبعد أمدٍ ندم الخليفة المهدي على ذلك وتبين له أن يعقوبَ بنَ داوودَ كان أحقّ بالقتل من بشارٍ (غ ٣ : ٢٤٩) .

٢ ــ الزواج بغير العربيات :

ولعل الزّواج بغير العربيات كان أبعدَ تلك الأسباب أثراً في المجتمع الإسلامي الجديد ، ذلك لأن البيت على الحقيقة مملكةُ المرأة تُديره وتُدبّره حسْبما عرَفت هي في بِيئتها الأولى ، فالطعام والأثاث ونَمَط الحياة يجب أن تختلف كلها باختلاف النساء المهيمنات على البيوت الجديدة .

وهنالك أمرٌ أشدُّ أثراً من المطعم والملبس . هنالك الخُؤولة الجديدة . إنّ الطفل الذي ينشأ في البيت الجديد بين أبٍ عربيّ وأمّ فارسية أو رومية يكون عادةً أكثرَ ميْلاً إلى غير العرب ــ بعامل التربية وأثر الأمّ ــ من العربي الكريم الجدّين الأصيل المنتسَب .

هؤلاء الداخلون في الإسلام من غير العرب كانوا يُسَمَّوْن « الموالي » [١] .

(١) راجع أبو نواس (الطبعة الثالثة) ١ : ٣١ - ٣٢ .

ولفظة « مولى » في الأصل تعني السيد وتعني العبد . وأما الذين يُولدون من أب عربي ومن أم غير عربية في الأغلب أو من أم عربية وأب غير عربي فكانوا يُسَمَّوْن « المولَّدِين » .

ولم يكن غريباً أن يكون في هؤلاء المولدين « شُعوبيةٌ » . وكان الشعوبيون لا يَرَوْنَ للعرب فضلاً على غيرهم من الأمم ، بل يَرَوْنَ أن حَضارةَ الفرس أو الروم كانت أرقى وأفضل من حضارة عرب الجاهلية . وكثيراً ما كان هؤلاء الشعوبيون يهزأون بحياة البَدْو وبعاداتهم ومطاعمهم ومشاربهم . واذا لم يتجاوزْ أحدُهم ذلك إلى بغضٍ كمينٍ للعرب وإلى سعي لإزالة سلطانهم ونفوذهم سُمِّيَ « شعوبي اللسان » .

وكان في البيئة العباسية طبقة أثّرتْ في حياة المحدثين تأثيراً عميقاً ، تلك هي طبقة الجواري . والجارية في الأصل هي الفتاة ، أو الفتيّة من النساء ، ولكنها أصبحت تطلق على الأمَة — أيِّ الجارية المملوكة . غير أن الجواريَ في العصر العباسي لم يكُنّ يُمْتَهَنّ في خِدمة البيوت ، أو أننا نحن هنا لا نعني هؤلاء منهن . بل كان هنالك استاذون وأستاذات يعلمون الجواريَ أصنافَ العلوم كالفقه والكلام وأنواع الفنون كالغناء والرقص والشعر ، حتى إنهن كُنّ يُتَّخَذْنَ للمباهاة والمناظرة . وقد يبلُغ ثمن جارية مثل هذه مئاتِ ألوف الدراهم أو الدنانير ، وقد زعموا أن محمداً الأمينَ أغرى ابن عمه جعفراً بمليون دينار حتى رَضِيَ أن يبيعَه جارية عنده اسمها بَذْل . وقد كان بعض هؤلاء الجواري شاعرات .

ورغب الناس في الزّواج بالجواري فأنجبْنَ الأولادَ ، وكثيراً ما كان أبناءُ الجواري أشهرَ وأقدرَ من أبناء الحرائر ، نعدّ لك من هؤلاء المنصور والرشيد والمأمون والمعتصم .

إلا أن كثْرة الجواري في بيوت الخلفاء والأمراء وفي مراتع اللهو كان أيضاً

مَدعاة إلى الفساد الاجتماعي الذي أنّتْ منه البيئة العباسية . ولقد زاد في هذا الفساد نشوء طبقة الغِلمان والخِصيان .

٣ ـ التعرب :

إن الموالي الذين لم يختلطوا بالعرب من طريق الزَواج تَعربوا أيضاً ، فأصبحت اللغة العربية لغتَهم يتخاطبون بها ويكتبُون ويَنظِمون ويَنثِرون . وبلَغ من إعجاب غير العرب « بالعرب » أنهم كانوا يُلفِّقون لأنفسهم أنساباً عربية ، فأبو تمام الرومي أصبح حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس ... ابن عديّ بن عمرو بن الحارث ابن طيء بن أُدَد ... بن سبأ بن يشجُب بن يعرُب بن قحطان (تاريخ بغداد ٨ : ٢٤٨) . وهكذا أصبح المسلمون من الترك والفرس والروم يشعُرون شعوراً قومياً عربياً . فاللغة العربية أصبحت لغتَهم ، والتاريخُ العربي تاريخَهم ، والحياةُ العربيةُ حياتَهم . حتى إن الذين لم يدخلوا في الإسلام بل ظلوا في أهلِ الكتاب كالنصارى واليهود والصابئة كانوا لا يختلفون في شعورهم الظاهر عن المسلِمين في شيء ، وربما تَسَمَّوْا بالأسماء الإسلامية وتكنَّوا بالكُنى العربية .

٤ ـ السكنى في الحضر :

كان خروج العرب بالفتح « هِجرة تاريخية » ، كالهجرة البابلية والأشورية والكنعانية ، اقتضت أن ينزل الفاتحون خارج شبه جزيرة العرب ، فسكنوا المدن الكبرى والقرى ، وعرفوا حضاراتٍ جديدةً وعُمراناً جديداً : لقد أصبحوا « حضَراً » يرتبطون بالبيت المشيَّد فتقوى صِلَتهم بمن جاورهم وتضعُف بمن فارقوه . ولقد كانوا من قبل « رُحّلاً » إلا أقلَّهم يَحمِلون عصبياتِهم وعداواتِهم معَ خيامهم وينتقلون بها من مكان إلى آخر لا يذكُرون إلا صلَةَ النسب أو ما هو بمعنى النسب من الحِلف والولاء . أما إذا جاوروا قوماً في مَنزِل أو على ماء ، فإنهم لم يرَوْا لهم بهم إلا صِلَة جوارٍ تزول

عموماً مَع رفع أوتاد خيام ِ أحد الفريقين لضربها في مكان آخر .

والنزول في الحضر يدعو إلى الترف والتنعم وإلى اللهو بما يتيسر للمرء في المدن من أوقات الفراغ ومن تقليدِ المترَفين وأصحاب الملك وأهل السلطان ، ومن الاحتكاك بالأمم التي لا ترفع مثلها العليا في الأخلاق والشرف والحياة إلى المقام الذي يرقى إليه العرب بمثُلُهم العليا ، وخصوصاً إذا كان في المدن من يتصدى لبيع اللهو وأسبابه على الشبّان الأغرار ، فتفسُدُ حينئذ أحوال الحياة وتتدنّى المثلُ العلْيا وتَقِلّ الشجاعة والخير في الطباع . وقد كان من نتائج ذلك أنِ انتشرت مجالسُ الشراب والغنـــاء واللهو ، وخصوصاً في ضواحي المدن وفي الأديرة [1] .

إن العربَ الخُلّصَ حاولوا أن يتمسكوا في أول أمرهم — وفي الدولة العباسية أيضاً — بمثُلِهُمُ العليا : لقد حَرَصوا على ألا يُمتَهَنوا في الأعمال والصِناعات التي تدعو إلى خِدمة الآخرين كالزِراعة والحِدادة ، بل اكْتَفَوْا بأن يكونوا وُلاةً للأمصار أو قادة للجيوش أو شعراءَ . ومعَ أن الفرس قد شاركوا العرب في الدولة أو دفعوهم عن كثير من مراكزها ومراتبها ، فإن العربَ ظلّوا الطَبَقةَ السائدة الشريفة في البيئة العباسية .

ومعَ اتساعِ الفتوحِ كَثُرت أموال الجِباية التي كانت تُصبّ من أقاصي المقاطعات وأدانيها في بغداد فكَثُرت الثَرَوات العامة والخاصة ، وعم العُمران والترف ، واتسعت الزراعة والتجارة وارتقت الصِناعات ، وكثُرت الأسفار والرِحلات ، وتنافس الناس في تشييد القصور وتنسيق الحدائق ، وتنافسوا في النقش والزخارف والأنسجة واقتناء النفائس .

وبنزول الحَضَر اتسعتْ حركة العِلم أيضاً وكثر التأليفُ وانتشرت حَلَقات الدروس وعمّتِ الرِحلات في طلب العلم أو في طلب المعارف

---

(١) راجع أبو نواس ١ : ١٠ — ١١ ، ٢١ ، ٤٥ ، ٥٦ .

الطبية والجغرافية والدينية والأدبية وما إلى ذلك .

وقد خضع العرب في نزولهم في الحضر لهذه العوامل ِ كلها : خيرِها وشرِها .

٥ ـ الدولة والحكومة :

كان للعرب دولٌ قبل الإسلام وحكومات . ولكنّ الدولة الجديدة والبلدان المفتوحة اقتضتْ شكلاً جديداً للدولة وأنواعاً من الحكومات كانتْ مفقودة في المجتمع القديم لأنها لم تكن من ضَروراتِه ، ثم أصبحتِ الآن واجبةً بوجود هذه الدولة التي شيّد الأمويون جِدارها الشرقي عند كاشغَرَ على حدود الصين ، وجدارها الغربي على البحر الأخضر (المحيط الاطلسي) في أوروبة وإفريقية معاً .

وبما أن البلاد المفتوحةَ كان فيها ، من قبلُ ، حكوماتٌ قائمة ، فلم يستنكفِ العربُ أن يستفيدوا مِن اختبار من نَزَل في تلك البلاد قبلَهم من الدول ، فاستعانوا بالأنظمة القديمة وبرجال الدول القديمة . وبما أن الفرس هم الذين ساعدوا العباسيين على نَيْلِ الخلافة لم يكُنْ مستغرَباً أن يُلْقِـيَ العباسيون قيادَ دولتهم إلى الفرس جُملةً واحدة ، حتى أصبحتِ الدولة العباسية فارسيةً في كل شيء ، وحتى أصبحَ الفرس والخُراسانيون خاصة يُدْعَون « أبناء الدولة » .

أثار تقديم الموالي على العرب في الدولة العباسية نِقمة العرب خاصة ، فكان هنالك دَعَوات ضعيفة إلى الثورة على العباسيين وإلى ردِّ الأمويين إلى أريكة الخلافة . وكذلك نَقَم الشيعة على العباسيين وحاربوهم حتى قال بعضهم :

يا ليتَ ظُلمَ بني مروانَ عاد لنا ، وليت عدلَ بني العباس في النار !

ومثلَ هؤلاء جميعاً فعل الخوارج ، مما هو ألصق على الحقيقة بالتاريخ .

والمشادّة بين العرب والفرس لم تكن تقوم فقط على أُسُسٍ عنصرية بل كانت ، إلى حدٍّ بعيد ، منافسةً في سبيل السُلطان والكسب . ومعَ أنه كان ثمة مَيْلٌ كبير إلى إعادة المجد الفارسي الذي تجسم فعلاً في دواوين الحكومة العباسية وفي كثير من نواحي البيئة العباسية ، فإن القول بمسعى الفرس المسلمين إلى إعادة الدولة الفارسية القديمة وإلى بعث الدين المجوسيّ لا يزال يفتقر إلى بحوثٍ وبراهين . ولنذكُرْ أن أكابرَ رجالِ الدولة العباسية وأكثرَ فقهاءِ المسلمين كانوا فرساً . ولو لم أذكر لك سوى أبي حنيفة والطبري والزمخشري والغزالي لَبانَ لك تمسُّك الفرس بإسلامهم وبالدولة الإسلامية ، ولعلمتَ أن التنافس في سبيل الحكم والمال هو العصب الذي كان يرتجف في كل فتنة ويهتز عند كل اضطراب .

وإذا كان ثمة جماعاتٌ دينية سرية أو غير سرية تقاوم العباسيين ، فإن هذه الجماعات لم تتوخَّ أكثرَ من استبدالِ شكلٍ إسلاميّ ما بشكلٍ إسلاميّ آخر أداها إليه اجتهادُها وفلسفتُها ، ولم تكن ترغب قطّ في الخروج بجماعاتها من الإسلام إلى غير الإسلام .

خصائص الأدب الجديد عموماً والشعر خاصة

إن جميع العناصر والعوامل التي سبق فعدّدْناها قد عَمِلت على نشوء خصائصَ جديدةٍ في الأدب العباسي عموماً وفي الشعر خاصة . لقد حدث التجدد في :

(أ) **الألفاظ** : إن هجر الحياة البدوية واتخاذَ الحياة الحَضَرية معَ طُغيان ألوان الحياة الأجنبية اقتضت كلُّها إهمالَ ألفاظ لم يبق للجيل الجديد حاجة إليها ، ثم استعمالَ ألفاظ تعبر عما ظهر في البيئة الجديدة من آلات

وأدوات وآراء وأعمال . إن هذه الألفاظَ التي قلت الحاجة إليها قليلاً أو كثيراً أصبحت تُدعى في العصر العباسي « غريبة » أي غير مألوفة :

نحو : أيّهَ = صاح ، الديموم = الفلاة الواسعة ، عنتريس = (الناقة) الضخمة القوية ، القِرام = ثوب ملون منقوش .

أما الكلمات التي ظلت سائرةً على الألسن مألوفة كثيرة الاستعمال في الشعر والنثر فقد سُمّيت « فصيحة » كهذه الألفاظ الواردة في شعر الأعشى :

أنت خيرٌ من ألفِ ألفٍ من القو م إذا ما كَبَتْ وجوه الرجال ،
أريحيٌّ صَلْتٌ يَظَلّ له القـو م وقُوفاً قيامَهم للهـلال !

ولعله من الخير أن نذكر أن « غرابة الألفاظ » أمرٌ نسبي بين زمن وزمن وبين مكان ومكان . ولكن لا يجوز لمن يجهل كَلِمةً أن يعدّها غريبة إذا كان أدباءُ مكانه أو زمانه يُجرونها على أقلامهم وألسنتِهم ولو مرةً بعد مرة .

وهنالك ألفاظ تُسمّى « دخيلة » ، وهي ألفاظٌ ليست من اللغة العربية ولكنّ العربَ احتاجوا إليها في الجاهلية أو في الإسلام فاستعاروها من جيرانهم أو ممن احتكّوا بهم من غير العرب ، من الأعرابيين كالأحباش أو اليهود أو السُريان ؛ أو من غير الأعرابيين كالفرس والروم والرومان والترك ومن إليهم . ولقد عرّب العرب هذه الكلمات قليلاً أو كثيراً وأدخلوها في شعرهم ونثرهم ، فجاء بعضها في الشعر الجاهلي أو في القرآن الكريم أو في الشعر الإسلامي نحو قَرْمَد في قول طرفة : « تشاد بقرمد » أو قرميد (من اليونانية : كرمد)[1] والقُرطاس (من اليونانية : خارطيس أو خارطي = الورق ، أو الورق المنشور) والقانون (من اليونانية : قانون = المسطرة) والإقليم (من اليونانية : كليما = المِنطقة ، المقاطعة). وقِس على ذلك « كيمياء وجغرافية وفلسفة» (فيلو = محب + سوفيا = الحكمة) . ولعل كلمة « دِرْهم »

---

(١) الخفاجي ١٥٥ .

أيضاً من أصل يوناني (دراخما = وحدة للعملة هي في الاصل نحو أربعة قروش ذهبية) ، وإن كان الخفاجي [1] يذكر أنها من اللفظة الفارسية (درَم = قطعة من العملة الفضية ، أو وَحْدة من العملة تبلُغ في الأصل نحو ثلاثة أرباع القرش الذهبي) [2]. وقس على هذه الفردَوس (باراداسيوس = الجنينة) والقِسطاس ، والأسطرلاب ، والتِرياق ، والقِنطار ، وغيرها [3] .

أما « دينار » فهي بلا ريب رومانية الأصل (ديناريوس) . وإذا كان الأشهر في « قيصر » أن تكون رومانية فإنها هنا من اليونانية (من قيسار وهو لقب لملوك بيزنطية) ، وقد أبدلت السين هنا صاداً في سبيل التعريب [4] .

وأما الفارسية خاصة فقد استعار العرب منها ألفاظاً كِثاراً منها « كِسرى » (من خسرَوْ = الملك العظيم) و « عسكر » (من لشكر= الجيش) و « دِرَفس » في قول البحتري : « وانو شروان يُزجي الصفوفَ تحت الدرفس » (من درفش = وهي الراية العظيمة) . ثم هنالك « نموذج » (من نموده = اسم المفعول من نمودن : العرض والإظهار) . وقِس على هذه كلها الدِيباج والفالوذج والجُلاب والجُلّنار وما إليها [5] .

هذه الكلمات «الدخيلة» التي «دَخَلَت في لغة العرب وليست منها» يجوز أن تُدعى أيضاً «معربة» ، إذا كان العرب قد عرَّبوها فأصبحت تجري مجرى ألفاظهم فلا تَنْفِرُ في الذوق أو اللفظ نحو : الهندسة والكوز والطبق والخز والسندس والياقوت والنّرجِس والياسمين والخيريّ والمِسك والعنبر والكافور والبستان والفردوس والقنطار والقنطرة والتّرياق والدرهم والدينار. أما إذا صَعب تعريبها ، ككلمة « جغرافيا » فيحسُنُ أن تُسمى حينئذٍ دخيلة لا معربة .

---

(١) شفاء الغليل في ما في كلام العرب من الدخيل ص ٨٣ . Cf. Enc. Isl. I 973.

(٢) Cf. Johnson, A Dict. of Persian, Arabic & Eng. 565.

(٣) فقه اللغة الثعالبي ٣١٨ – ٣١٩ .

(٤) Fraenkel, Die aram. Fremdwœrter im Arab. 278.

(٥) فقه اللغة ٣١٧ – ٣١٨ .

وهنالك نوعٌ آخرُ من الألفاظ أهمّ من جميع ما مرّ بك ، أعني بذلك الألفاظ « المُولّدة » أي الألفاظَ التي بدأ العرب باستعمالها منذ العصر العباسي فقط ، أو أنها دخلت في الشعر العربي منذ ذلك العصر ، سواءٌ أكانت هذه الكلمات من أصل أجنبي ، أو من أصل عربي ، من ذلك « الهندسة » (من الفارسية : انداره = المقياس والقياس) . وقد اشتقوا منها الهنداز والمهندز والهِندس والمهندس) ، والمِهرجان والنوروز أو النيروز (من الفارسية : نو = جديد + روز = يوم) اليوم الجديد أو أول يوم في السنة . ثم الأتّون أو الأتون (من السريانية) وهو الحفرة أو الفرن الذي يحرق فيه الصخر الكلسي ليحول إلى كلس .

وربما كانت الألفاظُ المولدةُ تَرْجِعُ إلى أصل عربي خالص ولكنها مبنيةٌ على صِيَغٍ لم تكن معروفة في الجاهلية ، أو دَالّةٌ على معانٍ لم تدلّ عليها تلك الصيغ في الجاهليّة : نحو « تلاشى » أي اضمحل ، و « استأهل » بمعنى استحق ، و « الإيقاع » أي الضرب على الدُّفّ ونحوه على نظام معين ؛ وكذلك لفظة « أدب » الدالة على الانتاج الراقي من الشعر والنثر ، واستعرض (مر ببصره على أشياءَ مختلفة) .

وكان نفر من الشعراء العرب يتملّحون بإدخال عدد من الكلمات الأعجمية في الشعر العربي ، وربما جعلوا القوافي فارسية أو نظموا البيت فارسياً كله [1] ، وليس هذا من باب ما نحن بسبيله .

(ب) **التركيب** — وقد فقدَ الأدب المُحْدَثُ شيئاً كثيراً من مَتانة التركيب التي عرَفها الشعر العربي في العصر القديم ، وذلك حينما تهاوَن المُولّدون في قواعد الصرف والنحو فاستعملوا صِيغاً جديدة شاذة كما فعل ابن الرومي مثلاً [2] . وكذلك استعمل المولّدون أحياناً الكلماتِ في غير

(١) راجع البيان والتبيين ١ : ١٣١ وما بعدها .

(٢) راجع دراسات قصيرة (ابن الرومي) : ١٧ — ١٩ .

مواضعها . ولكنَّ الأسلوب المُولَّد اكتسبَ رِقّةً وعُذوبة وسهولة . ولقد ظل هنالك نفر يقلدون الأساليب القديمة ، إما لأنهم بدْو كعُقبة بن رؤبة بن العجّاج ، وإما لأن بعض الخلفاء والأمراء كانوا يُحبّون الأساليبَ القديمة فاضْطَرّوا الشعراءَ إلى أن يَنْظِموا جانباً من قصائد المديح على الأسلوب القديم (١) ، وإما لأن الشعراء عموماً اضطُرّوا بعد نكبة البرامكة إلى أن يظهروا بمظهر عربيّ خالص كما فعل أبو تمام (٢) والبحتري .

(ج) **المعاني** – إن الحياة الجديدة جاءتْ بمعانٍ جديدة فعبّر عنها الشعراء . فلا بِدْعَ ، من أجل ذلك ، أن نجدَ في الشعر المحدَث معانيَ لا نجدها في الشعر الجاهلي .

(د) **الأغراض والموضوعات ، والجديد منها** – وكذلك تعددتِ الأغراض والموضوعات وتشعبت ، فبينما كان الشِّعر الجاهلي يدور على أغراض معدودة : كالفخر بالكرم والمدح والتمدح بالشجاعة ، والوقوف على الأطلال ، ووصف الناقة ، وبث الشكوى ، أصبح الشعر المحدث يتناول أغراضاً وفنونا لم تكن في بيئة الشاعر الجاهلي كمبارزة الأسدِ ووصفِ الموز واللِحية والزُلابية ووصف الرِياض والهياكل العظيمةِ والموازنة بين الورد والنرجس ومدح الحسد ووصف المِهرجان ... إلى غير ذلك من الأمور التي لم يَعْرِفْها الجاهليُّ ولا اتسعَ القولُ فيها للشاعر الأموي .

وإذا كان الشاعرُ العباسي قد أتى بأغراضٍ جديدةٍ وفنونٍ مستحدثةٍ وامتاز بخصائصَ كثيرةٍ ، فإن الميزة الكبرى التي تَلفِتُ أبصارَنا إنما هي « الوصف » ، الوصفُ الحسّي والخيالي كوصف الخمر والغناء والهياكل والمباني والرياض ووصف الصيد وما إلى ذلك مما تَعْرِفه في مواضِعه عند أبي نُواسٍ والبُحتري وابن الروميّ وأندادِهم .

---

(١) راجع أبو نواس ، الطبعة الثالثة ٥٨ – ٥٩ .
(٢) راجع أبو تمام ١١٤ – ١١٥ .

(ﻫ) وجوه البلاغة – كان الشاعر القديم (الجاهلي والأموي) ينظم الشعرَ سليقةً ، فلم يكن عادةً يتكلفُ الإتيانَ بالمعاني والألفاظ أو يُغرب في طلبِ الاستعارات والكنايات والتشابيه ، فما كان يرد منها في شعره كان يرد عفواً وسليقةً . وكذلك وردت في أشعار القدماء أنواع جمة من البديع كالجناس والطباق خاصة . ولكن هذه الأنواع كثرت في أشعار المُحدَثين ، ثم جعل المحدثون أيضاً يتطلّبونها ويتكلّفونها . من ذلك قول أبي تمام :

السيفُ أصدقُ إنباءً من الكتبِ ؛ في حدِّه الحدُّ بين الجِدِّ واللّعِبِ .
بيضُ الصفائحِ لا سودُ الصحائفِ في متونهن جَلاءُ الشك والرِّيَبِ .

(و) شكل القصيدة ووحدة الموضوع – كان للقصيدة القديمة في الأعم الأغلب شكل معروف : تبدأ عادة بالوقوف على الأطلال ، ثم ينتقل الشاعر إلى وصف مَطيّته وسفره ، بعدئذ قد يأتي إلى الفخر بنفسه وبقومه ، ثم ينتقل إلى الكلام على غرضه الرئيسِ كالمديح عند النابغة والغزل عند عنترةَ والحِكمة والعِظة عند زُهيرٍ ، والوصفِ عند امرىء القيس . بعدئذ قد يرْجِعُ إلى الفخر أو الحِكمة أو الغزل . وكانت القصائد تُمدح لطولها ، فعنوان مقدرة الشاعر كان « طولَ نفَسه » . وعلى مثل هذا سار الشعراء الأمويون عموماً إلاّ نفراً من بعض الشعراء المحبين كعمر ابن أبي ربيعة .

وجرى نفرٌ من شعراء العصر العباسي مجرى الجاهليين والأمويين ، ولكنّ الغالبَ على الذين يمثلون الشعر المحدث كبشارٍ وأبي نُواسٍ وابن الرومي وابنِ المعتز والعباس بن الأحنف أنهم صدَفوا ، في فنونهم التي اشتهروا فيها كالغزل والوصف والخمر خاصة ، عن ذلك الشكل الذي ألِفه القدماء في القصائد . ومعَ أن هؤلاء كانوا يُطيلون بعض القصائد في المديح والوصف ، فإنهم مالوا ميْلاً ظاهراً إلى المقطّعات ، فكان بعضهم يتغزّل أو يصف في بِضعةِ أبياتٍ . وربما مدح أحدُهم أو رثى بالبيتين والثلاثة ، كما فعل أبو نُواسٍ .

وحينما فقدت القصيدةُ المُحدثَةُ شكلَها القديم قلّتِ الأغراض فيها ومال الشاعرُ إلى أن يَقْصِر القطعةَ الشعرية على غَرَضٍ واحد يُعالجه معالجة شاملة في الأكثر ، كما كان يفعَلُ أبو نُواسٍ في الخمر وبشّارٌ في الغزل وابنُ الرومي في الوصف والتحليل . بذلك لم يبق البيت وحدة المعنى ، أي أن يكون كل بيت ذا معنى مستقل لا يؤثر في القصيدة تقديم بيت على آخر ولا تأخير بيت عن أخيه كما ترى في الأبيات التي تنتهي بها معلقة زهير . إن أبيات ابن الرومي التالية لا يمكنك أن تبدل فيها ترتيب أبياتها من غير أن تفككَ معانيها وتفسُدَ :

أُعانقهـا والنفسُ بَعْـدُ مَشوقةٌ ... إليها ، وهل بعدَ العِناق تَداني !
وألثِمُ فاها كـي تزولَ حرارتي ... فيشتدُّ ما ألقى من الهَيَمـان .
وما كان مِقدارُ الذي بي من الجوَى ... ليَشْفِيَه ما تَلْثِمُ الشفَتان .
كأن فؤادي ليس يَشْفي غليلَـه ... سوى أن يرى الروحَيْن يمتزجان .

موجز ترجمته

أصله وآله وولاؤه :

يرجع أصل بَشّار إلى طُخارَستان في أقصى خُراسانَ نحو المشرق ، وقع جَدّه يرجوخ بن أزدكر ... فيما قالوا ، في سبي المُهلّب بن أبي صفرةَ حينما كان والياً على خراسان (٧٨ – ٨٢ هـ ، ٦٩٧ – ٧٠٢) [١] : فأهداه المهلب إلى امرأتـه خَيرة[٢] بنت ضَمْرة القُشيرية ليكون في عِداد عبيدها – وكانت تقيم في ضيعة لها بالبصرة . ويظهر بجلاء أن يرجوخ قدِم البصرة ومعه ولدٌ له نعرف أن اسمه «بُرْد» ،ولكننا لا نعلم إذا كان هذا الاسم فارسياً في الأصل أو أنه عربي سُمّيَ به برد الصغير بعد دخوله معَ أبيه إلى البصرة .

ولما بلغ برد مبلغ الرجال زوجته مولاتُه خيرةُ فتاةً من بني عُقَيْلٍ ، ثم وهبته لامرأة عُقيلية أيضاً ، أو سَدوسية على الأصح[٣] ، هي أم الظِّباء (أو أم ظباء) امرأةُ أوسِ بنِ ثعلبةَ أحدِ فرسانِ بكرِ بنِ وائلٍ بخراسان وصاحبِ قصرِ أوْسٍ بالبصرة . وكان بردٌ طيّاناً حاذقاً ، ولكنه كان فقيراً ذليلاً [٤] فيقال أيضاً إنه لما وُلِدَ بَشّارٌ باعته أمه لأم ظِباءٍ بدينارين . ولكن

---

(١) GAL, Suppl. I 108.

(٢) في غ ٣ : ١٣٦ خيرة بكسر الخاء والصواب فتحها .

(٣) البيان والتبيين ١ : ٥٧ .

(٤) غ ٣ : ١٣٧ ، ٢٠٧ – ٢٠٨ ، الحيوان ١ : ١١٣ ، ١١٤ ، أخبار أبي تمام للصولي ٤٢ ، ١٨١ .

أم ظباء اعتقته (غ ٣ : ١٣٧) .

من ذلك نرى أن بَشّاراً فارسي من جهة الأب عربي من جهة الأم . فهو ، إذَنْ ، من المولّدين . وكان ينتسب بالولاء [١] إلى بني عُقَيْل الذين نشأ فيهم أو إلى بني سَدوس [٢] .

ويظهر من مراجعة بعض أهاجي حمّادِ عجرد في بشار أن أم بشّارٍ كانت تدعى « غزالة » ، وأنه كان له خالة أصغرُ سناً من أمه فيما يبدو ، زعموا أن اسْمها « سميعة » . وقيل بل كانت سميعة هذه أخته [٣] . وكذلك كان له فيما نَعْرِفُ أخوَانِ يقال لأحدِهما بِشْر وللآخر بَشير (أو بُشير ؟) ، وكانا قصابين [٤] . وربما كان هذان أخويه من أمه لا من أبيه . ولقد كانوا جميعُهم زَمْنَى (ذوي عاهات) : ولد بشار أكمه ، وكان أحد أخويه أعرجَ والآخرُ أكْتعَ (البيان والتبيين ١ : ٤١) .

مولده وحداثته :

لا سبيل إلى تحقيق مولدِ بشّارٍ لاختلاف الباحثين في مِقدارِ عُمرِه اختلافاً كبيراً . فقد ذكر الأصفهانيّ في موضعٍ (غ ٣ : ٢٤٧) أن بشّاراً عاش نحو ستينَ سَنَة ، وبهذا أخذَ فريتز كرَنْكو [٥] . فعلى هذا يجب أن يكونَ مولدُ بشارٍ نحو عام ١٠٦ هـ (٧٢٤ م) ، ولا أرى هذا معقولاً ، ذلك لأنّ الحسنَ البصريّ (ت ١١٠ هـ) لامَ بشاراً لأنه يجمع النساء في بيته (غ : ١٦٩) .

---

(١) راجع الانتساب بالولاء في أبو نواس ٣١ — ٣٢ .
(٢) البيان والتبيين ١ : ٥٧ .
(٣) الحيوان ١ : ١٧٤ و ٤ : ١٥٤ ، غ ١٣ : ٩٤ .
(٤) غ ٣ : ٢٠٨ راجع ١٦٨ و ٢١١ .
(٥) JRAS 1936, page 264.

وإذا نحن اعتبرنا بعضَ ما ورد في نسخ الأغاني (٣ : ٢٤٩ حاشية ١) وما ورد في تاريخ بغدادَ للخطيب البغدادي (٧ : ١١٨) وفي تاريخ ابن الأثير (٦ : ٥٠) وتاريخ أبي الفداء في أخبار سنة ١٦٦ ، من أن بشاراً كان يوم قُتل قد نيّف على التسعين ، وجب أن يكون مولده نحو عام ٧٠ هـ (٦٨٩ م) ، وإلى هذا ذهب عبد الرحيم العباسي (ت ٩٩٣ هـ) صاحب « معاهد التنصيص على شواهد التلخيص » ، وابن خلكان صاحب وفيات الأعيان [١] .

ولكن يظهر من أكثر مخطوطات الأغاني [٢] أن بشاراً عاش نيفاً وسبعين سنة فقط ، وأن مقتله كان عام ١٦٨ هـ (٧٨٣ – ٧٨٤ م) . وهذا ما ذهب إليه دي ماتّيو الإيطالي وقبله عنه غابرييلي [٣] في جعل مولد بشار نحو عام ٧١٠ م (٩١ – ٩٢ هـ) . ولعل هذا قريب من المعقول .

وولد بشار أكمه [٤] ، ثم نشأ على الفقر ، وإن كان أبوه يقوله عنه وعن نفسه (غ ٣ : ٢٠٨) : « ما رأيت مولوداً أعظمَ بركةً منه ، ولقد وُلِدَ لي (أي بَشارٌ) وما عندي درهم ، فما حال الحَوْلُ حتى جمعتُ مائتي درهم » .

وكان في طبع بَشار شرّ كثير ، وقد زعموا أن بَشاراً قال الشعر ولم يبلغ عشر سنين (وزاد غيرهم في المبالغة فقال : سبعُ سَنوات) . وكان ربما تعرّض بشعره لهجاء الناس ، فكان إذا هجا قوماً جاءوا إلى أبيه فشكَوْه فيَضْرِبه (أبوه) ضرباً شديداً . فكانت أُمّه تقول (لأبيه) : لِمَ تضرب

(١) دار الطباعة المصرية ١ : ١٢٥ .
(٢) غ ٣ : ٢٠٨ راجع ١٦٨ و ٢١١ حاشية ١ .
(٣) Fr. Gabrieli (Bulletin of the School of Oriental Studies, University of London, ix 1, 1937), Appunti su Bas's'ar b. Burd, pp. 151 ss.
(٤) غ ٣ : ١٤١ ، ابن خلكان ١ : ١٢٤ . ولا وجه لقول الأصفهاني (غ ٣ : ١٧١) : وكان قد كف وذهب بصره .

هذا الغلامَ الضرير ، أما ترحَمه ! فيقول : « بلى ، والله ، إني لأرحمه . ولكنه يتعرض للناس بالهجاء فيشكونه إليّ » . فسمعه بشارٌ وطمع فيه وقال له : « إن هذا الذي يشكونه مني إليك هو قول الشعر . وإني إن ألْـمَـمْتُ عليه أغنيتُك وسائرَ أهلي ؛ فإن شكَوْني إليك فقل لهم : أليس اللهُ يقول : « ليس على الأعمى حَرَجٌ ؟ » فلما عاودوا شكواه قال لهم بردٌ ما قاله بشارٌ. فانصرفوا وهم يقولون : « فِقْهُ بُردٍ أغيظَ لنا من شِعر بشارٍ[1] . وتوفي بردٌ ولم يزل بَشارٌ حَدَثاً [2] .

لقبه وكنيته :

وكان بَشّار يلقب بالمرَعَّث ، قيل لأنه كان يلبس رِعاثاً [3] في أذنه وهو صغير ، وقيل بل لأنه قال :

قال رِيمٌ مُرَعَّـــثٌ ساحرُ الطَّرْف والنظرْ ...

وقيل لأنه كان لقميصه جَيْبان : جيبٌ عن يمينه وجيب عن شِماله ، فإذا أرادَ لُبسه ضمه عليه من غير أن يُدخل رأسَه فيه ... أو لأنه كان يلبَسُه مرةً من هذا الجيب ومرة من ذلك [4] .

وكانت كنيته أبا مُعاذٍ (غ ٣ : ١٣٥ ، ١٣٩) .

حياته في البصرة :

ولدَ بَشارٌ بالبصرة ، وهنالك قضى أكثر حياته . وكانت البصرة يومذاك

---

(١) غ ٣ : ١٤٣ ، ٢٠٨ ، تاريخ بغداد ٧ : ١١٣ - ١١٤ .
(٢) راجع غ ٣ : ٢٠٨ سطر ٢ .
(٣) الرعاث جمع رعثة (بالفتح أو الضم) : القرط يلبس في الأذن .
(٤) راجع في ذلك كله الفهرست ٢٢٧ ، غ ٣ : ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، تاريخ بغداد ٧ : ١١٢ ، ١١٣ .

مركزاً للشعر والعلم وعلم الكلام وللّهو ، فضرب بَشار بسهم في هذه كُلِّها .

أما الشعر فتعرض به للناس بالهجاء على الأكثر والمديح على الأقل . ويُهِمّنا هنا تعرضه « لجريرٍ » بالهجاء حتى ننظر في عمره ، فقد روى الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) ، وعنه أخذ الأصفهاني (ت ٣٥٦ هـ = ٩٦٧ م) في الأغلب ، أن بَشاراً قال : « هجوت جريراً فأعرض عني واستصغرني ، ولو هجاني لكنت أشعرَ الناس (غ ٣ : ١٤٥ ، ١٤٣ ، ١٤٤) . فأخذ ذلك ابن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦ هـ = ١٠٦٤ م) فقال : وجريرٌ هجاه بَشار بن برد بأشعار كثيرة فلم يجبه . قال بشار : ولم أهجه لأغلبه ، ولكن لِيُجيبَني فأكونَ من طبقته . ولو هجاني لكنت أشعرَ الناس (العمدة ١ : ٩١) . والمفهوم من سياق هاتين الروايتين أن المقصود بجريرٍ هنا جريرُ بنُ عَطِيّة ابن حُذيفة الخطَفَى (ت ١١٠ هـ = ٧٢٨ م) أكبرُ الشعراء الهجائين في العصر الأموي .

هذه الرواية ، إذا صحت ، تنفي رأي كرنكو من أن بَشاراً ولد عام ١٠٦ هـ (٧٢٤ م) لأنها تحيل أن يتعرض بشار لجرير بن عَطية بن الخطَفَى بالهجاء وعمره أقل من أربع سنوات ، كما أنها تُلقي الشكّ على الروايات التي تجعل سِنه يوم قُتل تسعين سَنةً لأنه يكون بذلك يومَ وفاةِ جرير ابن أربعين سَنة ، ولا مجالَ لأن يقول بشارٌ حينئــذ : « ... فأعرَض عني واستصغرني ... » إلا أن يكون « الاستصغار لشأنه فقط » لأنه شاعر مولى غير عربي . وقد كان من عادة جرير ألاّ يَرُدّ على هؤلاء كما كان شأنه معَ البَرْدخت الذي كان يلقب بلقب فارسي فقط [١] .

ولا أدري ما الذي حمل بروكلمن [٢] على أن يميل إلى أن المقصودَ بهذه

(١) ابن قتيبة ٤٤٧ ، معجم الشعراء للمرزباني ١٨٠ - ١٨١ .
(٢) GAL, Suppl. I 108-9.

الرواية جريرُ بن المنذر السّدوسي (غ ٣ : ١٥٣) لا جريرُ بنُ عطية المشهور . غير أننا إذا قبلنا أن تكون رواية الجاحظ وابن رشيق تتصل فعلاً بجرير بن عطية أصبح من المرَجّح أن يقع مولد بَشار نحو عام ٩١ هـ (٧١٠ م) فيستقيم حينئذ معنى الرواية : « ... فأعرض عني واستصغرني ... » ، إذ يكون بَشّار قد تعرض لجرير بالهجاء قبل وفاته بقليل ، وعمر بَشار يومذاك أقل من عشرين عاماً .

* * *

ويظهر أن بَشاراً لم يُصِبْ حَظوةً عند خلفاء بني أمية . ومعَ أن الوليد ابن يزيد (قتل ١٢٦ هـ = ٧٤٤ م) قد أعجب بقول بشار :

أيُّها الساقيانِ ، صُبّ[redacted]رابي ، واسْقِياني من ريقِ بيضاءَ رُودِ ؛

فإن بشاراً عرّض بمقتله في مطلع عهد العباسيين (غ ٣ : ١٥٦) .

وفي عام ١٢٧ مدح بشارٌ الأميرَ سليمانَ بنَ هِشامِ بنِ عبدِ الملك في حديث طويل لا بدّ هنا من إثباته موجزاً قدْرَ الإمكان .

أقبلتِ الدنيا على بشارٍ قبل أن تتصرّمَ الدولة الأموية فاتّخذَ له في البصرة داراً جميلة جعل فيها مجلسين سَمّى أحدَهما « البَرَدان » والآخرَ « الرقيق » . وكان يَجلِسُ فيهما بالغَداةِ أو بالعَشِيّ ، ويعيش فيهما عِيشةَ تَرَفٍ ولَهْو . وكانت المتظرفات من أهل البصرة يأتِينه مرتين في كلّ أسبوعٍ يسمَعْنَ شعرَه ويُحادِثْنَه ويلهُونَ معه ويأكُلن ويشرَبْن الخمر . وفي هذين المجلسين عرَف بشار عَبدةَ التي شَهَرها بأشعاره وغنّى بها ، معَ أنها كانت في عِصمة زوج كُفُؤ [1] . أثار ذلك عليه فُقهاءَ البصرة ورجالَها فعابَه الحسنُ البصْريّ (ت ١١٠ هـ ، ٧٢٨ م) = وهتَف به

(١) راجع في كل ذلك غ ٣ : ١٦٨ – ١٦٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٣٣ – ٢٣٧ ، ٦ : ٢٤٣ وما بعدها .

(غ ٦ : ٢٤٤) ؛ وكذلك مشى إليه مالك بن دينار (ت ١٣١ هـ = ٧٤٩ م) يلومه على التشبيب بالنساء وعلى تناول أعراض الناس بالهجاء (غ ٦ : ٢٤٥) . ولكنَّ بشاراً لم يُقصِر عن غيِّه ، ولا هُمْ تعرضوا له بأكثرَ من ذلك . أضِفْ إلى ذلك أنه كان مُعْجَباً بواصلِ بن عطاء رأسِ المعتزلة في البصرة وتلميذِ الحسن البصري . وكان يمدحه ، وقد مَدَحه عام ١٢٤ هـ حينما تولى عبدُ الله بن عمر بن عبد العزيز العراق (طبري ٢ : ١٨٥٤) ، فجاء الخطباء يخطبون بين يديه ، وكان فيهم خالدُ بن صفوانَ وشَبيب بن شَيْبة والفضلُ ابن عيسى وواصل بن عطاء ؛ فمدح بشار واصلاً وعرَّض بسائر الخطباء [١] .

ويظهر أن بشاراً أظهر رأيَه الديني فقال « بالرجعة » [٢] ، وزعم أن جميع المسلمين كفروا بعد رسول الله ﷺ ، فقيل له وعليٌّ أيضاً ؟ فأنشد (قولَ عمرو بن كلثوم) :

وما شرُّ الثلاثة ، أمَّ عمرٍو ، بصاحبك الذي لا تصبَّحينا !

... وصوّب رأي إبليسَ في تقديم النار على الطين [٣] وقال :

الأرض مظلمة والنار مشرقة ؛ والنار معبودة مذ كانتِ النار [٤] .

وكذلك لام بشّارٌ أولئك الذين يكفّرون الخوارجَ لأنهم كفّروا رجلاً واحداً هو علي بن أبي طالب (غ ٣ : ١٤٥) .

حينئذ صاح واصلُ بن عطاء : « أما لهذا المُلحد ... من يقتُلُه ! » وعَمِل نفرٌ فيهم واصلُ بين عطاءٍ وعمرُو بن عُبيد أحدُ رؤساء المعتزلة

---

(١) البيان والتبيين ١ : ٣٤ – ٣٦ .
(٢) راجع حكيم المعرة ، الطبعة الثانية ١٠٠ .
(٣) كانت الفلسفة القديمة تقدم النار على التراب في العناصر الأربعة ، فليراجع ذلك في مواضعه .
(٤) راجع البيان والتبيين ١ : ٢٩ – ٣٠ ، ٣٤ – ٣٨ ، غ ٣ : ١٤٧ ، ٢٢٤ الكامل ٥٤٦ .
الأرض هنا التراب ، أو الطين .

أيضاً ، وصالحُ بن عبد القُدّوس (معَ أنه قُتل على الإلحاد في العام الذي قُتل فيه بشارٌ) على إزعاجْ بشارٍ عن البصرة . وما زالوا به حتى نَفَوْهُ عنها ، عام ١٢٧ هـ [١] .

واتفق في ذلك الحين أن الخليفةَ الوليدَ بنَ يزيدَ كان قد غضب على الأمير القائد سُليمانَ بن هشام بن عبد الملك وغرّبهُ سَنَةَ ١٢٦ هـ ، إلى عُمان [٢] . ولكنّ سليمان ثار بالوليدِ وحاربه . ثم ثار بعدَ ذلك بمروانَ بنِ محمدٍ آخرِ الخلفاء الأمويين سَنَةَ ١٢٧ . ولكنّ سليمانَ عاد فاستأمن مروانَ فأمّنه مروانُ وأسكنه مَعَهُ في حرّان [٣] .

فلما نُفِيَ بشارٌ عن البصرة سار إلى سليمانَ في حرّان ومدحه ، في أوائل سنة ١٢٧ على ما يظهر ، بقصيدته (غ ٣ : ٢١٧ — ٢١٨) :

نأتْكَ على طولِ التجارِب [٤] زينبُ   وما علمت أن النوى سوف تشعَب !

وقيل إن سليمانَ أجازَ بشاراً بخمسة آلافِ درهمٍ ، وقيل بل لم يُجِزْه بشيء . فرجَع بشارٌ مُغاضباً وانقلب إلى العراق ، في أواخر ١٢٨ هـ (خريف ٧٤٦ م) فمدح واليَ العراقِ يزيدَ بنَ عمرَ بنِ هبيرةَ الفَزاريّ ، بعد أنِ اشترك يزيدُ في مقتل الضحاكِ بن قيسٍ الشّيباني الخارجي ، بقصيدته المشهورة :

---

(١) ووهم بطرس البستاني حينما قال (أدباء العرب ٣ : ٣٤) عن بشار : « وجافاه عمرو بن عبيد فناصر واصلا على الهتف به والتشنيع عليه ، وشد أزرهما جلة من علماء الدين كالحسن البصري... فما زالوا به حتى نفوه عن البصرة حوالي عام ١٢٧هـ » . والذي غاب عن بطرس البستاني أن الحسن البصري توفي عام ١١٠ هـ ، بينما واصل وأصحابه لم يتغلبوا على بشار إلا عام ١٢٦ أو بعد ذلك بقليل .

(٢) الطبري ٢ : ١٧٧٦ .

(٣) الطبري ٢ : ١٨٩٢ — ١٨٩٣ .

(٤) لعلها : التجاور .

جفا وُدُّه فازورّ أو ملّ صاحبُهْ ، وأزرى به ألا يزالَ يعاتبُـــهْ .

ولا ريبَ في أن قولَ الأغاني (٣ : ٢٣٦) «إن بشاراً وفد إلى عُمَرَ بنِ هبيرة وقد مدحه » بهذه القصيدة ، وهْمٌ من صاحب الأغاني أو خطأ من النسّاخ . إن هذه القصيدة قِيلت لمناسبة مقتلِ الضحاك عام ١٢٨ هـ ، بينما عمر بن هبيرة عُزل عن خراسان عام ١٠٥ للهِجرة وتُوُفِّي نحوَ عام ١١٠ هـ (٧٢٨ م) . ولا أدري ما الذي حمل غبرييلي [١] على أن يصلَ بينَ بشارٍ وشخصٍ يُسميه عمرَ بنُ هُبيرة سيد بني عَيْلانَ يجعلُه أحدثَ زمناً من عمر ابن هبيرةَ المذكور آنفاً . ولعلّ صاحب الأغاني يُزيل الشُبهة في ذلك حينما يقول (٣ : ٢١٩) : « فلما رجَع (بشار) إلى العراق برّه ابن هبيرة ووصله ، وكان يعظّم بشاراً ويقدّمه لمدحه قيساً وافتخاره بهم » . فابن هبيرة هنا هو بلا ريب يزيد بن هبيرة [٢] الفزاري من قيس عيلان . ثم إن بشاراً نفسه يقول في هذه القصيدة المذكورة آنفاً (غ ٣ : ٢٣٦) :

سألقى بني عَيْلانَ ، إن فَعالهم يزيد على كل الفِعال مراتبُهْ ؛

مما يقطع بأن هذه القصيدة قيلت عام ١٢٨ هـ (٧٤٦ م) في مديح يزيدَ ابنِ عمرَ بنِ هبيرةَ بُعيدَ مقتلِ الضحاك بن قيسٍ الخارجي.

ويظهر أن بشاراً اتصل بمروانَ بنِ محمدٍ آخرِ الخلفاءِ الأمويين (١٢٦ — ١٣٢ هـ) ولكنّ مروانَ كان مشغولاً عن الإصغاء إلى الشعراء بما في العراق وخُراسانَ من ثَوْراتٍ وحروب قوّضتْ ، عام ١٣٢ هـ (٧٤٩ م) ، مُلكَ بني أميةَ كلّه .

وأغلبُ الظن أن بشاراً مدح مروانَ فلم ينلْ منه شيئاً ، فيقالُ إنه عاد فهجاه بأبيات لم يبقَ منها غير :

---

(١) Appunti 152.

(٢) تحت « ابن هبيرة » . Enc. Isl.

لمروانٍ مواعــدُ كاذبــاتٌ كما برقَ الحياءُ وما استهلا.

بين البصرة وبغداد :

ومعَ أن بشاراً ظلّ زمناً منْفياً عن البصرة فإنه لم يألفْ غيرَها إلْفةً طويلة . ولما قامتِ الدولة العباسية أحبَّ بشارٌ أن يتصل برجالها فاتصلَ في أوّلِ الأمرِ بخالدِ بنِ برمكَ .

بعد أن قتَلَ السفاحُ وزيرَهُ أبا سلَمةَ الخلاّل (١٣٢هـ=٧٥٠م)استوزرَ خالدَ بنَ برمَك ، « فكثُر الوافدون على بابِ خالدِ بن برمَك ومدَحه الشعراء وانتجعه الناسُ . وكان الوافدون »⁽¹⁾ « يُسَمَّوْن في قديم الدهر إلى أيام خالد بن برمك السُّؤّال ، فقال خالدٌ : هذا والله ، اسم استثقله لطُلّاب الخير وأرفعُ قدرَ الكريمِ عن أن يُسَمَّيَ بهِ أمثالَ هؤلاء المؤمّلين ، لأن فيهم الأشرافَ والأحرار وأبناء النعيم ، ومن لعله خيرٌ ممن يقْصِد وأفضلُ أدباً . ولكِنّا نُسمّيهم الزُوارَ ، فقال بَشارٌ يمدحه بذلك :

حذا خالدٌ في فعله حذْوَ برْمَك ، فمجْدٌ له مستطرِفٌ وأصيلُ .
وكان ذوو الآمال يُدعَــوْنَ قبلَه بلفظٍ على الإعدامِ فيه دليل :
يُسَمَّوْنَ بالسُّؤّال في كل موطن ، وإن كان فيهم نابــهٌ وجليل .
فسمّاهمُ الزُّوّارَ ستْراً عليهِــمُ ، فأستارهُ في المُجتدين سُدول .

... وقال بَشّارٌ هذا الشعر في مَجْلسِ خالدٍ في الساعة التي تكلم فيها خالد بهذا الكلام ، فأعطاه خالدٌ لكل بيتٍ ألفَ درهم »⁽²⁾ .

ومنذ ذلك الحين ، على ما يظهر ، بدأ بَشار يَفِدُ على خالدِ بن برمك فيأخذُ في كل وِفادةٍ خمسةَ آلاف درهم (غ ٣ : ١٩٢) . ولما تولى خالدُ

---

(١) الفخري (المطبعة الرحمانية) ١١٣ .
(٢) غ ٣ : ١٧٣ .

ابن برمك فارس (أو طبرستان) بين عام ١٤٨ و ١٥٢ هـ (٧٦٥ – ٧٦٩ م) قصده بَشارٌ ومدحه فمطله خالد ، ولكن بَشاراً استنجزه فأعطاه عشرة آلافِ درهم [١] . وكذلك مدح بَشارٌ خالدَ بن برمك بقصيدته المشهورة :

لعمري ، لقد أجْدى عليَّ ابنُ برمك ؛
وما كلُّ من كان الغِني عنده يُجدي.

فأعطاه عليها ثلاثين ألف درهم (غ ٣ : ١٩٢) . ووَفَد عليه مرةً ثانيةً إلى فارسَ ومدحه فنال منه أربعة آلاف دينار (غ ٣ : ٢٠٢ – ٢٠٣) .

أما الخليفة المنصور (١٣٦ – ١٥٨ هـ) فكان مُبخَّلاً يُضرب بشُحّه الأمثال ... والصحيحُ أنه كان رجلاً حازماً يُعطي في موضع العطاء ويمنع في موضع المنع ، وكان المنع عليه أغلب (الفخري ١١٦) . من أجل ذلك لم يكن للشعراء فيه مطمعٌ كبير . غير أن بشاراً لم يقنَطْ منه ، فلما حجّ المنصور ، في عام ١٣٦ هـ على الأغلب (حزيران ٧٥٤) ، استقبله أناس على طريق الكوفة وكان فيهم بشار . وكان الزمن حراً فأنشدَ المنصورُ بيتاً من الشعر وطلب إجازته فأجازه بشار ، فخلع المنصور جبته على بشار فباعها بشار بأربعمائة دينار (غ ٣ : ١٧٨ – ١٧٩) .

لم يثبُتْ بَشارٌ على وَلائه للمنصور ولا كان ذلك في طِباعه ، أو أنه كان أميل إلى آل علي . فلما ثار إبراهيمُ بنُ عبدِ الله بن الحسن العَلَويّ في البصرة على المنصور دخل عليه بَشارٌ (غ ٣ : ١٥٦) وقد مدحه بقصيدة مطلعها : « أبا جعفر ما طولُ عيش بدائم » ، يشير عليه فيها بما يجب أن يفعله ليظفرَ بأبي جعفر المنصور . ولكن المنصور تغلّب على إبراهيمَ وقتله (١٤٥ هـ = ٧٦٢ م) ، وكانت القصيدة لم تشتهرْ بعد . حينئذ قَلَبَها بَشارٌ أو جعل مَطْلَعها : « أبا مُسلِم ، ما طول عيش بسالم » ليُوهِمَ أنه يَستحسنُ فتكَ

---

(١) غ ٣ : ١٨٤ – ١٨٥ .
Cf. L. Bouvat, Les Barmécides 40,

المنصورِ بأبي مُسلمٍ الخُراساني في عام ١٣٧ هـ .

وفي العام الذي قُتل فيه إبراهيمُ بنُ الحسن تُوُفّيَ عمرُو بنُ عُبيد وانتهى المنصورُ من بناءِ بغدادَ . وهكذا استراح بَشارٌ بموت عمرِو بنِ عُبيدٍ من التشرد وعاد إلى البصرة واستقرّ بها (١) . ثم جعل يفد مرة بعد مرة إلى بغداد (٢) في أيام المنصور فيجلس بالليل في مسجد الرُّصافة ويحضُره ناسٌ كثيرون فيحدّثهم ويُنْشدهم أشعارَه (الموشح ٢٤٨) .

اتصاله بالمهدي :

لما بويع المَهديُّ بالخلافة (١٥٨ هـ = ٧٧٥ م) كانتْ أركان الدولة العباسية قد رسخت ، وكانتْ أحوالها قد استقرت ، فكان من المنتظر أن يلتفت المَهْدي إلى الشعراء الذين كانوا يَؤمون البَلاطَ من كل حدْب وصوب .

وجاء بشار إلى بغدادَ في العام الأول الذي وَلِيَ فيه المهديّ الخلافةَ فقَصَدَ يزيدَ بنَ مَزْيَدٍ وسأله أن يذكُرَه للمهديّ ، فسوّفه يزيدُ بضعةَ أشهرٍ . في هذه الأثناء كان بَشار يقضي وقته ، معَ أنداده مِنَ الشعراء الطامعين في الدخول على المهدي ، في مسجد الرُصافة الذي كان المهديّ قد فَرَغَ من بنائه ، سنَةَ ١٥٩ هـ ، شرقَ بغداد .

ثم ورد بغدادَ رَوْحُ بنُ حاتمٍ فبلغه خبرُ بَشارٍ فذكره للمهدي من غيرِ أن يَلْقى بَشّاراً فأمرَ المهديُّ بالإذنِ لبشارٍ بالدخول عليه ، فدخل عليه بَشار ومَدحه فوصله بعشرَةِ آلافِ درهمٍ ووَهَبَ له عبداً وقَيْنة وكَساهُ كُساً كثيرةً (٣) .

---

(١) راجع البيان والتبيين ١ : ٣٦ .
(٢) ابن خلكان ١ : ١٢٤ . GAL I 73 : Enc. Isl. I 671.
(٣) غ ٣ : ٢١٣ ، ١٧٩ .

وإذا كان من المعقول أن يهجوَ بَشارٌ يزيدَ بنَ مزيد (غ ٣ : ٢١٣) فإنه كان من غير المعقول أن يهجوَ روْحَ بنَ حاتِم . ولكنه فعلَ فتوعده روْحٌ ، ولكنّ المهديّ نجّاه (غ ٣ : ٢١٦) لأنه كان قد ألفه .

وكثرت القالةُ على بشّارٍ بشأن الغزل ، وأن غزله يدعو إلى الفسق . ثم بلغ ذلك مسامعَ المهديّ ، وكان المهدي غيوراً (غ ٣ : ١٨٢ ، ٢١٩ ، ٢٤١) ووصل الوشاةُ إلى أذُن الخليفة . ولكن الخليفة لم يرَ وجهاً لمنع بشارٍ عن الغزل ما دامتْ أشعارُ الشعراءِ الغزلين منتشرةً بين أيدي الناس (غ ٣ : ١٨٢ — ١٨٣) . ولكنّ الوشاةَ أقنعوا المهديَّ بأن شعر بشارٍ من باب آخر . فلما وفد بشارٌ على المهدي ، بعدَ ذلك ، قال له : « ... أتحض الناس على الفُجور وتقذِفُ المحصَنات المخبّئات ! والله ، لئن قلتَ بعدَ هذا بيتاً واحداً في نسيبٍ لآتيَنّ على رُوحك ... » [1] .

سبب مقتله :

لما تولى يعقوبُ بنُ داوودَ الوَزارةَ للمهديّ (الفخري ١٣٥) تعرّض له بشّارٌ بالمديح فلم ينلْ منه إلا الرَّد القبيح (غ ٣ : ٢٤٣ — ٢٤٦) فهجاه . ثم إن يعقوبَ ولّى أخاه صالحاً على البصرة ، عام ١٦٣ هـ (الطبري ٣ : ٥٠١) ، فلم ينل بشّارٌ من صالح عطاءً فهجاه أيضاً . ولما قدِمَ المهديّ نفسُه البصرةَ أعطى عطايا كثيرةً ووصلَ الشعراء ، وذلك كله على يدِ يعقوبَ بنِ داوودَ ، فلم يُعطِ يعقوبُ بشاراً شيئاً (غ ٣ : ٢٤٦) .

من أجل ذلك كله هجا بشارٌ صالحَ بن داوودَ ويعقوبَ بن داوود ، فأنهى يعقوبُ إلى الخليفة المهديِّ أبياتاً يهجوه بشارٌ بها وأبياتاً مُقذعة زعم

---

(١) غ ٣ : ٢٤١ ، راجع ٢١٩ ، ٢٢١ ، تاريخ بغداد ٧ : ١١٧ . ان تعيين التاريخ الذي منع فيه المهدي بشاراً عن الغزل عسير . يذكر الأغاني (٣ : ٢٣٩) ان ذلك كان في وزارة الربيع ابن يونس المتوفى عام ١٧٠ هـ (الفخري ١٣١) .

بَشاراً يهجو المَهديَّ بها . فغضب المهديُّ وطلبَ بَشاراً ، فخاف يعقوبُ أن يدخلَ بَشارٌ على المهديّ فيمدحَه فيعفُوَ عنه ؛ ولفّق يعقوبُ عند المهدي شهوداً على أن بَشاراً زنديقٌ ، فأمَر المهديّ بقتله . ثم وجّه يعقوبُ إلى بَشارٍ مَنْ ألقاه بالبطيحة في الحرّارة بالبصرة (الطبري ٣ : ٥٣٨ – ٥٣٩) وضربه حتى تلف . بعدئذ حُمل بَشار إلى بيته ميتاً [1] .

ويقال إن الناسَ شَمِتوا بموت بشارٍ لكثرة ما كان بشار قد تعرض لهم في حياته بالهجاء والقَذْف . وقيل : لم يجسُرْ أحدٌ على أن يشيّعَ جنازة بَشّار لئلا يتّهم بميله إليه وإلى مذهبه [2] . وكذلك يقال إن المهديَّ ، فيما بعدُ نَدِمَ على قتل بَشّارٍ إذ تبيّن له أن يعقوبَ بنَ داوودَ قدِ افترى عليه هذه التُهَمَ وأن يعقوب كان أحقَّ بالقتل .

أما مقتل بشار فقد ذكره ابن الأثير في أخبار سنة ١٦٦ هـ (٦ : ٥٠ = بيروت ٦ : ٧٤) ، وعنه أخذ أبو الفِداء . أما الخطيب البغدادي فقد تردد بين ١٦٧ و ١٦٨ (تاريخ بغداد ٧ : ١١٨) . ومثله فعل ابن خلكان (١ : ١٢٥ = بيروت ١ : ٢٧٣) . أما الأصفهاني فاختار سنة ١٦٨ هـ (غ ٣ : ٢٤٩) وهي تقع بين ٧٨٣ و ٧٨٤ م .

صفته وزيه :

وصف بَشّارٌ نفسَه فقال : إني ، والله ، لطويلُ القامةِ عظيمُ الهامة تامُّ الألواحِ أسجحُ [3] الخدّينِ (غ ٣ : ١٣٨) . وذكر الأصمعيّ صفتَه فقال : كان بَشّارٌ ضخماً عظيمَ الخلْق والوجهِ مجدوراً جاحظَ المُقلتين قد تغشّاهما لحمٌ أحمرُ ، فكان أقبحَ الناس عمىً وأفظعَهم منظراً (غ ٣ :

---

(١) الخالديان ١١٢ – ١١٤ ، غ ٣ : ٢٤٦ – ٢٤٨ ، ١٣ : ١٠١ ، الكامل ٥٤٧ و ٥٤٨ .
(٢) غ ٣ : ٢٤٨ وما بعدها .
(٣) طويل .

١٤١) ، معَ قُبح وجه (غ ٣ : ١٣٨ ، ١٧٤) . وكان آدمَ (غ ٣ : ١٤٢) أي أسمر . ولا ريب في أنه وُلِدَ أكمه فما نَظَرَ الدنيا قط [(١)] . ولا وجهَ لقول الأغاني : « وكان قد كُفَّ وذهبَ بصره » (غ ٣ : ١٧١) . وكذلك شاب بَشّار حتّى عمّ الشّيبُ رأسَه ولِحيته (غ ٣ : ٢٠١) .

ويذكر بَشّارٌ أن زِيَّه كان عربياً [(٢)] ، إلا أنه كان يُحلّي أُذُنيه برَعثتين (قِرطين) ، وتلك عادةٌ غيرُ عربية ولعلّها فارسية . ولقدِ اقتضتْ عاهتُه أن يلبَسَ ثياباً بَسيطة ، فكان يلبَسُ قميصاً له جيبانِ (والجيب مكان العنق في الثوب) : جيبٌ عن يمينه وجيب عن يَساره . فإذا لَبِسَ الثوبَ ضمّه عليه من غيرِ أن يُدخِل رأسَه فيه . وإذا أراد نزعه حلّ أزراره فسَقط الثوبُ على الأرض . ولم يكن يَنْزِعُ قميصَه من جهةِ رأسِه قطُّ . وكذلك كانتْ جُبّتُه على هذه الصِفة [(٣)] . إلا أنه كان يظهَرُ أحياناً و « عليه بِزّةُ الشُّعراء » (غ ٣ : ١٦٦) « وكانتِ الشُّعراء تلبَسُ الوشْيَ والمُقطّعات والأرْديةَ السُودَ وكلَّ ثوبٍ مُشَهّر ... مما يخالف زيّ الماضين » [(٤)] .

وكذلك كان لبشّارٍ عادةٌ قبيحة : « كان إذا أرادَ أن يُنشِدَ صفّق بيديه وتنحْنَح وبصق عن يمينه وشِماله ، ثم يُنشِد فيأتي بالعجب » [(٥)] .

عقبه :

رُزق بَشّارٌ بَنينَ وبناتٍ ، فقد تُوُفّي له ابنٌ (غ ٣ : ٢٢٠) وبُنَيّةٌ (غ ٣ : ٢٢٩) . ووُلِدَ له ولدٌ في أثناء العَداوة بَينَه وبين حمادِ عجْردٍ

---

(١) غ ٣ : ١٤١ — ١٤٢ ، ابن خلكان ١ : ١٢٤ .
(٢) غ ٣ : ١٣٨ ، تاريخ بغداد ٧ : ١٣١ .
(٣) البيان والتبيين ٣ : ٧٨ ، غ : ٣ : ١٤٠ .
(٤) البيان والتبيين ٣ : ٧٨ .
(٥) غ ٣ : ١٤١ ، ٢٤٥ ، س .

(غ ١٣ : ٩٤) ، وكذلك كان له ابنةٌ يَغْلِبُ على الظنّ أنها كَبِرت (غ ٣ : ٢١٢) . ونَعْرِف لبشّار ابناً اسمُه محمدٌ كان معاصراً لعُمَر ابنِ شبّة بعد العباسِ بنِ الأحنفِ[1] (ت ١٩٢ او ١٩٣ هـ) .

وكذلك كان من ولد بَشّارٍ شخصٌ اسمه حمدانَ كان قصّاراً[2] بالبصرة (غ ٣ : ١٣٦) . ولكنْ لما دخل المأمونُ بغدادَ ، سَنَةَ ٢٠٤ هـ لم يكن قد بَقِيَ أحدٌ من عَقِبهِ (غ ٣ : ١٩٩) .

---

(١) الموشح ٢٩٢ .
(٢) القصار : الذي يبيض الأثواب .

عناصر شخصيّته

عناصر الشخصية في بشارٍ كثيرةٌ متشعبة ، ولقد كان لها تأثيرٌ عميق في حياته وفي توجيه شعره :

١ ـ افتخاره بأصله وولائه :

لا ريبَ في أن بَشاراً كان فخوراً بأصلِه الفارسي ، كان يعتقد أنه ينتمي إلى ملوك فارس [١] :

كلُّ امرِىءٍ رَهْنٌ بما يُؤَدّي ورُبَّ ذي تاج كريم الجَدِّ
كآل كسرى أو كآل بُرْد ! . . . .

وله مديحٌ كثير في فُرسانِ أهل خراسان ورِجالاتهم [٢] :

من خُراسانَ وبيتي في الذُّرى . . . .

وكذلك افتخر بأهل طُخارستانَ عند المهديّ وأنكَرَ أن يكون متصلا بالصُّغْد ، وهم سُكان ما وراء النهر ، نهر جَيْحون ، من التُرك ، ذلك لأنهم تجارٌ لا فُرسان [٣] . وكثيراً ما كان يضُمّ إلى الافتخار بأصلهِ الفارسي

---

(١) غ ٣ : ١٧٦ راجع ١٣٥ .
(٢) البيان والتبيين ١ : ٥٧ – ٥٨ .
(٣) راجع غ ٣ : ١٣٨ .

من جهةِ أبيه الفخرَ بأصلِه العربيّ من جهة أمّه ، و « يتعلّق في شعره بوَلاءِ عُقيل بنِ كعبِ بن ربيعةَ بن عامرِ بنِ صعصعةَ » (زهر الآداب ٢ : ١١٩) كقوله في ذلك كله (غ ٣ : ١٣٨ ، ١٣٩) :

• نَمَتْ في الكرامِ بني عامرٍ فروعي ، وأصْلي قُرَيْشُ العجمْ .
• إنني من بَني عُقَيْلِ بن كعبٍ موضعَ السيف من طُلى[1] الأعناق .

ولقد اختصَّ بمديحِه قيساً أو مُضَر ، فمدَح قيسَ عَيلانَ[2] :

أمِنْتُ مضرّةَ الفحشاء ، إني أرى قَيْساً[3] تَضُرّ ولا تُضارُ[4] .
كأنّ الناسَ حين تغيبُ عنهم نباتُ الأرض أخطأها القِطار[5] .
وقد كانت بتُدمرَ خيلُ قيسٍ فكان لتدمرٍ فيها دَمار
بحيٍّ من بني عَيْلانَ شُوسٍ يسير الموت حيث يُقال ساروا .

وكان يتحامل على اليمن (غ ٣ : ١٥٤) .

غير أن الأصفهاني (غ ٣ : ١٣٩) ذكَر أن بَشاراً كان كثيرَ التلوُّن في وَلائه ، شديدَ الشَغبِ والتعصُّب للعجم ، مرة يفتخر بوَلائه لقيسٍ ومرة يتبرأ من وَلاء العرب :

أصبحتُ مولَى ذي الجلالِ ، وبعضُهم
مولى العُرَيْبِ فخُذْ بفضلِكَ فافخرِ[6] ،

---

(١) أصل .
(٢) غ ٣ : ١٣٩ ، ٢١٩ ، ٢٣٦ ، زهر الآداب ٢ : ١١٩ .
(٣) في رواية : مضراً .
(٤) تقابل بالضرر : أي لا يستطيع أحد أن يضر قيساً أو أن يقابلها بالضرر إذا هي أضرته .
(٥) جمع قطر : المطر .
(٦) ذو الجلال : الله – افتخر بفضلك أنت لا بانتسابك إلى أحد من العرب .

مولاكَ أكرمُ من تميمٍ كلِّها
أهلِ الفَعالِ ومن قُريشِ المشعَرِ[1].

وربما هجا العربَ هِجاءً مُرّاً . ولقد أصاب الدكتور يوسف هل[2] في تعليل ذلك بأنه ردٌّ على عَنْجهية بعضِ العرب الذين تَحدَّوْه وأرادوا الحطَّ من مقامه في الشعر لأنه مولىً غيرُ عربي . والشواهد على ذلك كثيرةٌ أشهرها قِصته مَعَ عُقبةَ بنِ رُؤبة بن العَجّاج[3] فقد « أنشد عُقبةُ بنُ رؤبة عقبةَ بنَ سَلْم رَجَزاً يمتدحه فيه وبَشارٌ حاضر. فأظهر بَشارٌ استحسانَ الأرجوزة ، فقال عقبة : هذا طِراز لا تحسنه ، يا أبا مُعاذ . فقال بَشار : ألمِثلي يقال هذا الكلامُ ؟ أنا ، والله، أرجزُ منك ومن أبيك ومن جَدّك[4]. ثم غدا بَشار على عُقبة بن سَلْم بأرجوزته التي أولها : « يا طلَل الحيّ بذاتِ الصَّمْدِ » . ولا ريب في أن هذا ، كما ذكر الأصفهاني عن الجاحظ (غ ٣ : ١٧٧) ، من « سوء أدب عُقبةَ بن رؤبة ، وقد أجمل بَشارٌ محضره وعِشرته». إن هذه الحادثةَ أثارتْ بشاراً على العرب .

وأما أشدُّ تلك الشواهدِ حزّاً في نفس بشارٍ فحادثة الأعرابيّ التي ذكرها الأصفهاني ، قال (غ ٣ : ١٦٦) : دخل أعرابيّ على مَجزأةَ بنِ ثورٍ السَّدوسي ، وبشار عنده وعليه بِزة الشعراء ، فقال الأعرابي : مَنِ الرجلُ ؟ فقالوا : رجلٌ شاعر . فقال : أمولىً هو أم عربي ؟ قالوا : بل مولىً . فقال الأعرابي : ما للموالي والشعرِ ! فغضب بشّار وسكت ، ثم ارتجل قصيدة من أشد أنواع الهجاء في العرب .

---

(١) الفعال : الفعل الحسن والكرم . المشعر : الكعبة .
(٢) Enc. Isl. I 671.
(٣) البيان والتبيين ١ : ٥٧ ، الخالديان ٢٧٥ . غ ٣ : ١٧٤ – ١٧٧ ، تاريخ بغداد ٧ : ١١٦ ١١٧ العمدة ١ : ١٧٧ – ١٧٨ .
(٤) كان عقبة وأبوه رؤبة وجده العجاج من كبار شعراء الرجز .

من أجل ذلك لا أرى أن شعوبيةَ بشّارٍ متأصّلة في نفسه أو متحدرة من أجداده ، ولكنها موقفٌ خلقه العربُ أنفسُهم في نفس بشارٍ وفي نفوس غيرِه من الشعراء كابن الروميّ مثلا ، حينما كان أحدُهم يحاول أن يحطَّ من شأنِ الشاعر أو الأديبِ لأنه لم يكن عربياً خالصاً أو بَدْوياً قُحّاً .

٢ ـ مذهبه :

ولم يكنْ لبشارٍ مذهبٌ ديني يتمسك به ، فقد كان شاعراً متكسباً يميل مرة إلى الفاطميين طمعاً بالتكسُّب منهم ؛ وقد يميل مرةً عنهم إذا قَنِطَ من عطائهم أو إذا تعرّض له أحدُهم بسوء .

قَنِطَ بَشارٌ من عَطاءِ أبي جعفرِ المنصور فمدح الثائرَ عليه إبراهيمَ بنَ عبدِ الله بنِ الحسنِ ولم يتحوبْ من أنْ يخاطِبَ المنصور بقوله :

لحا الله قوماً رَأسوك عليهِمُ ، وما زلتَ مرؤوساً خبيثَ المطاعم .

ثم التفت إلى ابراهيم فقال :

أقولُ لبسّامٍ عليه جلالَةٌ غدا أرْيَحِيّاً عاشقاً للمكارم ؛
مِنَ الفاطميِّينَ الدُّعاةِ إلى الهُدى جِهاراً، ومن يهديك مثلُ ابنِ فاطم !

ولكن لما ظَفِرَ المنصورُ بإبراهيمَ وقتله خافَ بَشارٌ العاقبةَ وقلب القصيدة وجعلها هِجاء في أبي مُسْلِمٍ الخُراساني وحذَف منها قوله : « من الفاطميين ... » .

وتعرّض له رجلان زيْديّان فهجا أحدَهما هجاء مُراً وهجا الآخر هجاء مُقذعاً (غ ٣ : ١٦٨ ، ٢٠٣) . وله من الإمام عليّ كرمَ اللهُ وجهَه موقفٌ سبَقَتِ الإشارة إليه [١] .

---

(١) راجع غ ٣ : ٢٢٤ ، البيان والتبيين ١ : ٢٣٠ ، Gabrieli 156

٣ – وجوه زندقته :

والإجماعُ واقعٌ على أن بَشاراً كان زِنديقاً ، وأنه قُتل على الزندقة والإلحاد . إلا أنه قتل بتُهمة الزندقة لأنهم لم يستطيعوا أن يقولوا للناس : إننا قتلناه لأنه هجا الوزير وهجا الخليفة . ومعَ ذلك فقد كان بشارٌ زنديقاً لا ريبَ في ذلك ، ولكن ما معنى زنديق هنا ؟

يختلف المدقّقون في مدلول معنى الزندقة . فقد قال قوم هي إظهار الإسلام وإبطان المَيْل إلى الديانات القديمة من مانوية أو مزدكية أو ديصانية .

ولم يكنِ العامة يَرَوْنَ – وهم كذلك اليومَ – في الزندقة أكثرَ من التماجن وإظهار الظَّرف وترك بعضِ الفروض المكتوبة من صلاةٍ في وقتها ومن صيام في أيامهِ ، أو أكثر من التساؤل عن حِكمة ما أوجبَ الدينُ على الناس من أنواع العبادات على نظام خاص .

وبَقِيَ رأيٌ ثالثٌ يَلْفِتُ النظرَ ، هو أن بعضَ الناس « كانوا يستعينون بالمنطق على فهم الدين » ، فلا يكفي أحَدهم أن يفهَمَ العقيدةَ كما فَهمها أبواه ، بل كان يطمع في أن يَفْهَمَها هو بنفسهِ من جديد . من أجل ذلك كان بعضُهم يأتي إلى مقاييسِ الفلسفة وقضايا المَنطق ويحُكّ بها العقيدةَ التي أورثه إياها أبواه . ولقد كانت النتيجة في أكثرِ الأحيانِ خروجاً من الاطمئنان النفساني إلى الاضطراب العقلي فإلى تقلقل العقيدة الموروثة فإلى الشك في الأديان السماوية وقِلة الثقة بما أتتْ به الشرائع .

ويظهر أن بشاراً كان يتهم بالأنواع الثلاثة كُلّها .

فأما النوعُ الأول فقد ذهبَ إليه ابن النديم [١] حينما عد بشاراً في الذين يُظهرون الإسلام ويُبطنون الزندقة . وبقوله أخذ بروكلمن [٢] .

---

(١) الفهرست (ليبسك) ٣٣٨ .
(٢) Gal I 74.

وأما النوعُ الثاني فشواهدُه كثيرة في حياة بشارٍ وشعرِه ، فقد امتحنه نفرٌ فوجدوه لا يصلي [1] . وسأله غيرهم لِمَ لا يصلي الصلواتِ في أوقاتها ، فقال : « إن الذي يقبلُها تفاريق يقبلُها جُملة » (غ ٣ : ١٨٦) . ووجده آخرون يؤذّن بعدَ طلوعِ الشّمس وهو سكران (غ ٣ : ٢٢٤) ، وكانوا يعرفون أنه يفعل ذلك . وسمعوه مرة يقول : « أزرى [2] بشعري الأذان » (غ ٣ : ١٤٣) . وسَمِعَ هو مرةً جارية تغني بشعره فقال لجلسائه : «هذا ، واللهِ ، أحسن من سُورة الحَشْر [3] » (غ ٣ : ٢١١ س) . وقال مرة أخرى : « هذا والله أحسنُ من الفَلج (الفوز) يومَ القيامة » (غ ٣ : ٢١٥) . وكذلك بلَغه أن رجُلاً سمع شعرَه فقال : « ما كنت أظُنّه (يعني الشِّعرَ) إلاّ لرجل كبير » ، فقال بشّار : أفلا قال : « هو والله ، لأكبرِ الجن والإنس » (غ ٣ : ١٥٤ س) . وتظاهر مرة بالذهاب إلى الحج ثم انصرف معَ رفيقٍ له إلى الفِسق والفُجور . وسَمِعَ مرة ضجةً فجعل يتظرّف بذكر يوم القيامة هزؤاً ، في حديثين طويلين ، إلى غير ذلك مما تَحفِل به حياة بشّار .

وكثيراً ما أعلن بشّارٌ آراءً تخالف ما يقول به الإسلام . لقد أجمعتِ الأديانُ على أن آدمَ أفضلُ من إبليسَ ، وخصوصاً الإسلامَ . وقد جاء في القرآن الكريم : « ... ثم قُلنا للملائكة : اسْجُدوا لآدَم ، فسَجدوا إلا إبليسَ لم يكنْ من الساجدين . قال (الله) : ما مَنَعك ألاّ تسجُدَ إذ أمرتُك ؟ قال (إبليس) : أنا خيرٌ منه ، خلَقْتَني من نارٍ وخَلَقْتَه من طين » [4] ولقد غَضِبَ اللهُ من أجل ذلك على إبليس وأهْبَطَه من السماء

---

(١) غ ٣ : ٢٢٢ ، ١٨٦ س .
(٢) أزرى به : عابه ، صرف الناس عنه .
(٣) القرآن الكريم ، السورة ٥٩ .
(٤) سورة ٧ (الأعراف) : ١١ – ١٢ ، راجع سورة ٣٨ (ص) : ٧٣ – ٧٦ .

إلى الأرض ، وأخرجه من جُملة الملائكة إلى عِداد الشياطين . ومعَ ذلك فقد رفعَ بشّارٌ صوتَه بقوله (١) ، أو قيل ذلك على لِسانه :

إبليسُ خيرٌ من أبيكم آدمٍ ، فتنبّهوا ، يا معشرَ الفُجّارِ ؛
إبليسُ من نارٍ ، وآدمُ طينةٌ ؛ والطينُ لا يسمو سُمُوَّ النارِ .

ثمّ إنه قال بلا ريب (٢) :

الأرضُ (٣) مُظلمةٌ ، والنار مُشرقة ؛ والنارُ معبودةٌ مُذْ كانتِ النارُ .

ولم يكتفِ بشارٌ بذلك ، بل كفّر المسلمين بعدَ رسول الله وحكَم بالكُفر على الخلفاء الراشدين (أبي بكرٍ وعُمَرَ وعثمانَ وعلي) . وخصّ علياً كرمَ اللهَ وجَهه بجملةٍ عنيفة (٤) .

وأما النوع الثالث فقد ذكره صاحب الأغاني (غ ٣ : ١٤٦ — ١٤٧) فقال : « كان بالبصرة ستةٌ من أصحابِ الكلام : عمرُو بنُ عُبيد ، وواصل ابنُ عطاءٍ ، وبشّارٌ الأعمى ، وصالحُ بنُ عبدِ القُدّوس ، وعبدُ الكريم ابن أبي العوجاء ، ورجلٌ من الأزد ... (اسمه) جريرُ بنُ حازمٍ ، فكانوا يجتمعون في منزل الأزدي ويختصِمون عنده . فأما عمرٌو وواصلٌ فصارا إلى الاعتزال . وأما عبدُ الكريم وصالحٌ فصحّحا التوبةَ . وأما بشّارٌ فبقي متحيّرا مخلّطاً . وأما الأزدي فمال إلى قول السُّمَنيّة ، وهو مذهبٌ من مذاهب الهند ، وبَقِيَ ظاهرُه على ما كان عليه ... » . ويرى غبرييلي أن قول الأغاني : « وأما بشّارٌ فبقي متحيراً مخلطاً » أدلُّ على ما كان يرمى به بشّار ، من الإلحاد والزندقة ، من قولهم إنه كان يعتنق عقيدةً معينةً اعتناقا تاماً ، لا

---

(١) حسين منصور ، بشار بن برد بين الجد والهزل ٩٥ .
(٢) البيان والتبيين ١ : ٢٩ ، غ ٣ : ١٤٥ .
(٣) يقصد التراب .
(٤) البيان والتبيين ١ : ٣٠ ، غ ٣ : ٣٢٤ .

الثنويةَ ولا المزدكيةَ الزرادشتيةَ ، ولا هذه أو تلك من الفِرق العَلَوِيّة (كالكامِلية أو كالقول بالرجعة)[1] .

وكان الخوارجُ قد كفّروا الإمامَ علياً فحمل عليهم واصلُ بنُ عطاء المعتزليُّ وأصحابُه وجميعُ الشيعة وأهلُ السنة ، فالتَفَتَ بشّارٌ يُشير إلى هؤلاء كُلِّهِم متهكما :

ما لي أشايِعُ غزّالاً لـه عُنُـقٌ   كنِقْنِقِ الدَوِّ إن وَلّى وإن مَثَلا .
عُنقُ الزُرافة ، ما بالي وبالِكُـمُ   تكفّرون رِجالاً كفّروا رجلا[2] .

وكذلك كان بَشّارٌ يقول بالرجعة[3] ، وذلك من أقوالِ الغالية من الشّيعة . فبهذا وأشباههِ عُرِفَ بشّارٌ بالزندقة والإلحاد ؛ وبهذا وأشباهه زعَموا أنّ المهديَّ قتله .

وأحبَّ قوم أن يدفعوا عن بشّارٍ الزندقةَ فاستشهدوا بشيء من شِعره على إيمانه بالبعث والحِساب (البيان والتبيين ٣ : ١٢٧) .

كيف يبكي لمُحْبَسٍ[4] في طُلولٍ   من سيُفْضي لحبس يومٍ طويل؟
إن في البعث والحسابِ لَشُغْـلاً   عن وقوفٍ بكل رَسْمٍ مَحيل[5] !

وكذلك قالوا إنه لما قُتِل بشّار وَجَدوا في منزله صحيفة فيها : « بسمِ الله الرحمن الرحيم — إني أردتُ هجاء آلِ سُليمانَ بن علي لبُخْلهم . فذكرتُ قَرابتَهم من رسول الله ﷺ فأمسكتُ عنهم إجلالاً له ... » (غ ٣ : ٢٤٩) .

---

(١) Appunti 154.

(٢) الغزال لقب واصل بن عطاء . النقنق : ذكر النعام ، الدو : الفلاة (وكان واصل طويل العنق) ؛ ولى : ذهب ، مثل : قام منتصباً . ويقصد بقوله « رجالا » الخوارج ، وبقوله « رجلا » علي بن أبي طالب = البيان والتبيين ١ : ٢٩ ، ٣٥ ، غ ٣ : ١٤٥ .

(٣) غ ٣ : ١٤٥ ، ٢٢٤ .

(٤) المحبوس .

(٥) طلل دارس .

وقال إنه أراد هجاءَ سلْمٍ الخاسر ولكنه أمسك وقال : « لوَددتُ أنه ينتمي في غير أبي بكرٍ رضي الله عنه ، وإني مُغْرَمٌ ألفَ دينار مني لهتْكِ عِرضه وعِرض مواليه » (غ ٢١ : ١١٣) . هذا ، إلاّ أن تكونَ أمثالُ هذه الرواياتِ من عملِ بعضِ الفقهاءِ الذين أرادوا أن تُختَمَ حياةُ بشّارٍ وأمثالِه بالتوبة [1] .

٤ ـ حياته الفكرية :

عاصرَ بشّارٌ نهضةَ علمِ الكلام وحركةُ الاعتزال في مَهْدهما ، في البصرة وفي العراق ؛ فلا عجَبَ إذا رأيناه أحد أصحابِ الكلام المعروفين (غ ٣ : ١٤٦) ، أو إذا عدّه ابنُ النديم من رؤسائهم (الفهرست ٣٣٨) . ويظهر لنا بجلاء أنّ بشّاراً كان مادياً في اتجاهه الفكري مَع شيء يسير من الشّك [2] وميل إلى الجبْر . وأعتقد أن هنالك روايةً في كتاب الأغاني تُجْمِل ذلك أحسنَ إجمال ، قال بعضهم [3] : كنت أُكلّم بشّاراً وأردُّ عليه سوء مذهبه بميله إلى الإلحاد ، فكان يقول : « لا أعرف إلا ما عاينته أو عاينت مثله » . وكان الكلام يطول بيننا ، فقال لي : ما أظن الأمرَ ، يا أبا خالد ، إلا كما تقول . وإن الذي نحن فيه خِذلان ، ولذلك أقول :

طُبِعْتُ على ما فيّ غيرَ مُخيَّرٍ ... هوايَ ؛ ولو خُيِّرتُ كنتُ المهذَّبا .
أُريد فلا أُعطى ، وأُعطى ولم أُرِدْ ؛ ... وقصّر عِلمي أن أنالَ المُغيّبا .
فأُصْرَفُ عن قصدي ، وعِلمي مقصِّرٌ ؛ ... وأُمسي وما أُعقِبْتُ إلا التعجُّبا .
لعَمْري لقد غالبتُ نفسي على الهوى ... لِتَسْلَى ، فكانتْ شهوةُ النفس أغلبا .
ومن عَجَبِ الأيامِ أن اجتنابَها ... رَشادٌ ، وأنّي لا أُطيق التّجنُّبا .

فالرجل ماديّ لأنه « لا يَعْرِفُ إلاّ ما عاينَهُ أو عاين مِثلَه » ، ثم هو

(١) راجع عمر بن أبي ربيعة لجبرائيل جبور ٢ : ١٩٠ .
(٢) راجع الكلام على الشك الفلسفي في حكيم المعرة ، الطبعة الثانية ٥٣ – ٥٤ .
(٣) غ ٣ : ٢٢٧ ، الخالديان ١١٨ .

شاكٌ متشائم لأنه يرى « أن الذي نحنُ فيه خِذلانٌ لا حقيقةَ ولا خيرَ فيه ... وإذا بحثَ هو فيه رجع عنه جاهلاً له متعجباً منه . ولا سبيلَ له إلى أن يَعْرِفَ الغيبَ (ما وراء الذي يعاينه) » . وأما أنه يقول بالجبر فواضحٌ في قوله « إن الله خلقه شريراً ، وهُوَ يريد أن يبتعدَ عن الشر ولكنه لا يستطيع ، لأن شهوةَ نفسِه إلى الشرّ تَغْلِبُ إرادةَ عقله للخير » . وهو يرى أيضاً « أنه ذو علم ثاقب وإرادة تُغالب ، ولكنه عاجزٌ عن الاستفادة من علمه ومن إرادته » .

ويظُنّ غبريلي (١) أن هذه الأبيات تدُلّ فقط على الاضطراب النفسي عند بشّار .

٥ ـ تبرمه بالناس والنقمة عليهم :

هذا التشاؤم ، الذي يرجع من قرب أو بعد إلى أنه كان أكمه ، جعله من أشد الناس تبرُّما بالناس ؛ وكان يقول : « الحمد لله الذي ذهب ببصري لئلا أرى من أبغض (غ ٣ : ١٤١) » . ولقد زادَ تبرمَه بالناس ونقمتَه عليهم كثرةُ تعريضِهم بعَماه (٢) ، ولعل هذا كانَ من أبرزِ الأسباب الداعية إلى هجائه المُقذع .

٦ ـ خفة روحه :

وكان بشّار معَ ذلك كله خفيفَ الروح حُلوَ الحديث . قالوا : كنا معَ بشّارٍ فأتاه رجلٌ فسأله عن منزلِ رجلٍ ذكَره له . فجعل (بشّار) يُفَهِّمه

---

(١) Appunti 154 - 5.

(٢) البيان والتبيين ١ : ٤٠ س ، ٤١ ؛ غ ٣ : ١٤١ ، ١٤٦ ، ١٥٢ - ١٥٣ ، ١٥٩ ، ١٦٧ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٩٥ الخ الخ .

ولا يفهم ، فأخذه بيده وقام يقودُه إلى منزلِ الرجل وهو يقول :

أعْمَى يقودُ بصيراً ، لا أبَا لكُمُ ؛
قد ضلَّ من كانتِ العُمْيانِ تَهديهِ !

حتى صار به إلى منزلِ ذلك الرجل ، ثم قال له : هذا هو منزله ، يا أعْمَى (غ ٣ : ٢٢٥) . وهنالك رواياتٌ كثيرة تدُلّ على خفة روحه يصعُبُ الاستشهادُ بها هنا ، إما لطولها وإما لما فيها من المجُون البالغ [١] .

---

(١) راجع غ ٣ : ١٥٨ ، ١٥٩ - ١٦٤ ، ١٨١ ، ٢١٢ ، ٢٢٥ ، ٢٣١ - ٢٣٢ .

خصائصه الفنّية

إن استخراج الخصائص الفنية من شعر بَشار أصعبُ من استخراجها من شعر أبي نُواس وأبي تمام والمتنبي وأندادهم ، ذلك لأن دواوينَ هؤلاء وصلتْ إلينا تامة كديوان المتنبي مثلاً ، أو شبهَ تامة كديوان أبي نُواس[١] . أما بَشار فلم يَصِلْ إلينا كلّ شِعرِه معَ أنه شاعرٌ مُكْثِر ، فقد زعَم هو نفسُه أن له اثنَيْ عَشَرَ ألفَ قصيدة ، وفي قول ثلاثةَ عَشَرَ ألفاً[٢] . وقال ابن النديم في فهرسته[٣] : « ولم يجتمع شعرُه لأحد ولا احتوى عليه ديوان ، وقد رأيت منه نحو ألفَ ورقة[٤] منقطع ، وقد اختار شعرَه جماعةٌ » . وكذلك ذكر ابن النديم « أن المرزبانيَّ جمعَ كتاباً في خمسة آلاف ورقة فيه أخبارُ الشعراء المُكثِرين من المُحدَثين ومُختارُ أشْعارِهم على أنسابهم وأزمانهم أوّلُهم بشارٌ » . وهنالك رواةٌ وعلماءُ اهتموا ببشار فجمعوا أخبارَه وأشعارَه إما مُستقلةً أو مجموعة مَع غيرها[٥] .

---

(١) راجع أبو نواس ١ : ٥٧ .
(٢) غ ٣ : ١٤٤ مرتين ، تاريخ بغداد ٧ ؛ ١١٦ .
(٣) ص ١٥٩ .
(٤) الورقة بحساب ابن النديم عشرون سطراً .
(٥) راجع الفهرست ١٣٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٧ ، ١٥٩ .

كان قد وصلَ إلينا من شعر بشّار « المُختار من شعر بشّار » اختارَه أبو بكرٍ وأبو عثمانَ الخالديانِ — وهما من الأدباء الذين عاشوا في بَلاط سيفِ الدولة — وقد جمَعا فيه ثلاثمائةٍ وعشرين بيتاً . أما صاحبُ الأغاني (وهو أيضاً من الذين عاشوا في بَلاط سيف الدولة) فقد أثبَتَ لبشّارٍ نحوَ ستّمائةٍ وثلاثين بيتاً . إلاّ أنّ ثمّةَ أبياتاً لم يذكُرْها الخالديّان ولا نَجِدُها في ترجمةِ بشّارٍ في « الأغاني » ، وهي مَبثوثةٌ هنا وهنالك في الكُتب المطبوعةِ والمخطوطة . ولما جَمَعَ الشاعرُ المشهور محمودُ سامي البارودي (ت ١٣٢٢ هـ = ١٩٠٤ م) مجموعَه القيِّمَ « مختارات البارودي » (مصر — مطبعة الجريدة — ١٣٢٧ هـ) في أربعةِ أجزاءٍ تضُمُّ نحوَ أربعين ألفَ بيت ، كان حظُّ بشّارٍ منها مائتَيْنِ وثمانيةَ عَشَرَ بيتاً . ثمّ وَجَدَ محمّدُ الطاهرُ بنُ عاشور في مكتبتهِ بتُونِسَ مخطوطةً لشعر بشارٍ فيها نيِّفٌ وستّةُ آلافِ بيت (راجع المقدّمة ، ص ٩) . ولكنّ هذه الآلافِ الستّةَ لا تُوازي شيئاً ممّا كان بشّارٌ نفسُه قد قَدّرهِ لشعرِه ، ولا ذلك الذي رواه ابنُ النديم في « الفهرست » .

من أجل ذلك أرانِيَ مُضْطَرّاً إلى الأخْذِ بأمرين :

١ — سأستخرجُ خصائصَ بشّارٍ ، المعنويّة منها واللفظية ، من شِعرِه الذي وصلَ إلينا — أو من بعْضِه على الأصحّ (إذ المفروض أن يكونَ الشِعر الذي حفِظَتْهُ ذاكرةُ الرُواةِ وَوَصَلَ إلينا يجِبُ أن يكونَ أحسنَ شعرِ الشاعر) — . من أجلِ ذلك سيكونُ لنا فصلٌ فيه « خصائصُ جانبٍ من شعر بشّار » .

٢ — ثمّ إنّني سأُكمِّلُ هذه الخصائصَ بما ذكره الرُواة والنُقّادُ عن بشّارٍ (ولا ريبَ في أنّ هؤلاءِ قد عرَفوا من شِعرِ بشّارٍ أكثرَ ممّا نعْرِفُ نحن الآنَ) .

وأنا أعلم حق العلم أن استخراج الخصائص يجب أن يجريَ على أسلوب

يتناول وجوهاً عديدة من النقد ومن اكتشاف الميزات . ثم إنّ استخراج الخصائص يجب ألا يكون فقط من أقوال الرُواة .

ولكننا إذا نحن أقللنا من احتفالنا بأقوالِ الرواة والنقاد ونحن ندرس شِعرَ عُمَرَ ابن أبي ربيعة وجريرٍ وأبي نُوَاسٍ والبُحتري وأندادهم من الشعراء الذين نَعْرفُ دواوينَهم كاملة أو شِبه كاملة ، فإننا لا نستطيع أن نُجريَ بشاراً هذا المجرى ، وشعره لم يَصِلْ إلينا كاملا . فإذا أيقنّا أن أولئك الرواة والنقاد والشعراء قد عرفوا من شعر بَشار في أيامهم هم أكثَرَ مما نعرف نحن من شعره في أيامنا أضعافاً مضاعفة ، أدركنا قيمة أقوال هؤلاء في فهم شعر بشار واستخراج خصائص هذا الشعر الذي ضاع أكثره .

ثم إننا إذا أهملنا بعض الأحكام الجارفة المبنية على إعجاب بالغ من غير تحقيقٍ علمي ، أو على هوى في النفس : كما رُوي عن ابن الرومي أنه كان يقدّمُ بشاراً أو يزعمُ أنه أشعر من تقدم وتأخر (زهر الآداب ٢ : ١١٩) ؛ أو كما رُوي عن أبي حاتِمٍ (السجستاني) من أن بشاراً أشعرُ الناس (تاريخ بغداد ٧ : ١١٧) ؛ أو كما زعم الأصمعيُّ من أن الشعراء يجب أن يُختموا ببشار (غ ٣ : ١٤٨) ؛ ثم أهْملنا أيضاً عدداً من الأحكام المبنية على التحامل الشديد كأقوال المُغنّي إسحق بن إبراهيم الموصلي الذي كان لا يعتدُّ ببشّار بل يطعن عليه ويضع منه ، كما أنه كان لا يَعُدُّ أبا نُواسٍ البتّةَ ولا يرى فيه خيراً (غ ٣ : ١٥٥ – ١٥٦ ، ١٩٦) – إذا أهملنا أقوال هذه الطبقة وأخذنا بأقوال ابن رَشيقٍ في « العُمدة » وبآراء نفرٍ من العلماء والنقاد الذين ذكرهم الأصفهاني ، أو أخذنا بآراء العلماء المعتدلين عامة ، كنا على حق فيما نفعل ، وأصبح عندنا لبشارٍ صورة أدبية فنية شبه تامة .

مقامه :

قال الأصفهاني : بَشار « من مُخَضْرمي الدولتين العباسيةِ والأموية ، قد شُهِرَ فيهما ومدح وهجا وأخذ سَنِيّ الجوائز معَ الشعراء . ومحلّه في

الشعر ، وتقدُّمه طَبَقاتِ المُحدَثين فيه بإجماعِ الرُّواةِ ورئاسته عليهم من غيرِ اختلاف في ذلك ، يُغني عن وَصْفهِ وإطالةِ الكلام في ذِكْر محله (غ ٣ : ١٣٥) . وهو عند ابنِ قتيبة أشعر المُحدَثين (الشعر والشعراء ٤٧٧) . وكان الأصمعي يقول مبالغاً : « بَشار خاتمة الشعراء ، والله ، لولا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم » (غ ٣ : ١٤٣ ، ١٥٠) .

ولم يبالغ الخطيبُ البغدادي حينما جعله « المقدَّمَ على الشعراء المُحدَثين » ، ثم روى قولَ أبي تمام : « أشعرُ الناس وأشبَهُهم في الشعر كلاماً ، بعد الطَبَقة الأولى (أي القدماءِ) بَشارٌ والسيّدُ الحِميريّ وأبو فراسٍ (تاريخ بغداد ٧ : ١١٢ و ١١٦) . وكان النقاد يُسمّون بشاراً أبا المُحدَثين ، وقد قَبِلَ عنهم ذلك ابنُ رشيقٍ (العمدة ١ : ١١٠ و ٢ : ١٥٩) . وشرح الحُصْري (زهر الآداب ٢ : ١١٩) قولهم فقال : « وسُمِّي أبا المُحدَثين لأنه فَتَقَ لهم أكمامَ المعاني ونَهَجَ لهم سبيلَ البديع فاتبعوه » . ومِثْلَ ذلك قولُ المَرْزباني (الموشح ٢٥٠) : « بَشارٌ أستاذُ المحدثين الذي عنه أخذوا » . وكذلك شبهه النقاد بامرِىء القيسِ لتَقَدُّمهِ على المولّدين وأخذِهم (هم) منه » (العمدة ١ : ١١٠) .

والنقاد مُجمعون على أن بَشاراً أعظمُ المحدثين والمولّدين ، فهو عند ابنِ خلكان (١ : ١٢٤) « في أولِ مرتبةِ المُحدَثين من الشعراء المُجيدين » . أما الجاحظ فقال عنه (الحيوان ٤ : ٤٥٤) : « وليس في الأرض مولّد قَرَوِيٌّ (مدني) يُعَدّ له شِعرٌ في المُحدَث إلا وبَشارٌ أشعرُ منه » . وقد استشهدَ ابنُ رشيق بهذا الرأي (العمدة ١ : ٩١) ثم أكّد ذلك بروايةِ أخرى جمع فيها رأياً للجاحظ وآراء لغيره فقال (العمدة ١ : ٨٢ — ٨٣) : « وفوقَ هؤلاء (أي أبي نواس وأبي تمام والبحتريِّ وابنِ الرومي وابنِ المعتز والمتنبي) كُلِّهم طَبَقةٌ في السن (أيْ أقدمُ منهم) ، أشهرُهم وأشعرُهم بشارُ بنُ بردٍ ... كذا روى الجاحظ وغيرُه من العلماء » .

فمن هذا كُلِّه نرى أن قيمةَ بَشارٍ إنما ظهرت في العصر العباسي ، معَ أن أبرزَ خصائصه تظهَرُ في شعره الأموي كما تظهَرُ في شعره العباسي . إلا أنه لما كان شاعراً مُوَلّداً غيرَ عربي خالص ، فإن الشعراءَ والنقادَ لم يُريدوا أن يَحتْفِلوا به في الدولة الأموية . ولكِن « لما جاءتْ دولة أهل خُراسان (وانتقلتِ الخلافة من الأمويين إلى العباسيين) عَظُمَ شأنه » (غ ٣ : ٢١٩) .

خصائصه المعنوية

١ ـ شاعر مطبوع :

أول خصائص بشار أنه شاعرٌ مطبوع ، قال ابن قتيبةُ (الشعر والشعراء ٤٧٦ ـ ٤٧٧) : « بشارٌ أحدُ المطبوعين الذين لا يتكلّفون الشعرَ ولا يتْعبون فيه » : وقال عنه الأصمعيُّ : « كان مطبوعاً لا يُكلِّفُ طبعَه شيئاً متعذراً » (غ ٣ : ١٤٩) . ورفعه الجاحظُ فوق أنْداده حينما قال : « والمطبوعون على الشعر من المولّدين بشارٌ العُقيلي والسيِّدُ الحِميريّ وأبو العَتاهِيَةَ ... ، وبَشارٌ أطبعُهم كُلِّهم [١] » . وجعلَه أبو عُبيدة أشعرَ المُحدَثين مَعَ السيدِ الحميري (٧ : ٢٣٢) .

وانك لتشعر أن بَشاراً يقول في الفنون التي يطرُقها بسليقته لا يتكلّف المعانيَ البعيدَة ولا يتكلّف الألفاظَ ولا يُكرِه نفسَه على قولِ ما لا يُحِبّ . وشِعرُه في الحقيقةِ ، صورةٌ صادقة لنفسه .

٢ ـ شاعر مقتدر :

وبشارٌ مَع طبعهِ مقتدرٌ على قول الشعر وعلى الإتيان بالأغراض والمعاني

---

(١) البيان والتبيين ١ : ٥٨ ـ ٥٩ ؛ راجع غ ٣ : ١٤٥ ، ٤ : ١ ـ ٢ .

المقصودة . ولا ريبَ في أنه اكتسب هذهِ الخاصة مِنَ العصرِ الأموي . وهو - من أجل ذلك - أحدُ فحولِ الشعراء ، قويٌّ على التصرُّف بفنون الشعر (العمدة ٢ : ٩٩ ، الموشح ٢٥١) ؛ وقد أكْثَرَ الشعرَ وأجادَ القَوْلَ (تاريخ بغداد ٧ : ١١٢) .

٣ - شاعر مكثر :

ومَع هذا كُلّهِ - وبالإضافة إلى هذا كُلّهِ - فهو شاعرٌ مُكثر ، ولقد تكلمنا من قبلُ على مقدار شعره .

٤ - كثير الأغراض :

ومعَ أن بَشاراً عاش نحو أربعين سَنَةً في العصر الأموي وقال فيه أحسنَ قصائِده ، فإنه كان من الذين حملوا لِواء التجديدِ منذ ذلك الحين وأدخل على الشعر أغراضاً جديدة . فالغزَل بعَبْدةَ ، ووصفُ المعارك ووصفُ السفينة وبثّ الآراء الفلسفية والكلام على المَشُورة ، كلُّ هذه الأغراض طرقها بَشار في العصر الأموي ، يومَ كانت أغراض الشعر لا تزال محدودة .

ومن أبرز الأغراض المولدة الوصفُ الحِسي والتحليل ، وسيأتي الكلام عليهما في شعرِ بشار عند الكلام على فنون بشار . ولا بِدْعَ ، فبشار شاعرٌ حضريّ .

٥ - كثرة معانيه المخترعة :

ويتبع كَثْرةَ الأغراض عند بشارٍ كثرةُ المعاني ، فقد ذكر الجاحظ أنْ بَشاراً كان من أصحاب الإبداع والاختراع (غ ٣ : ١٤٥) . وكذلك أتى بَشار في شعره بمعانٍ جديدة ، قال ابن رشيق (العمدة ٢ : ٢٢٦) : « ثم أتى بشارُ بن برد وأصحابه فزادوا معانيَ ما مرّتْ بخاطرِ جاهليٍّ ولا مُخضرَمٍ

ولا إسلاميّ » . ولقد انفرد بَشار بمعانٍ دون سائر المولدين ، منها أن الحبَّ لا يكون دائماً من طريق العين ، بل ربما جاء من طريق الأذن ثم مر إلى القلب (العمدة ٢ : ٢٣٠) :

يا قومُ ، أُذْني لبعضِ الحيِّ عاشقـــةٌ . والأذنُ تعشَق قبلَ العين أحيانـــا !

قالوا : بمن لا تَرى تَهذي ؟ فقلت لهم : الأذن كالعين تُوفي القلبَ مَا كانا .

ولقد كرر بَشّار هذا المعنى كثيراً .

ثم إن بشّاراً ، كسائر الشُعراء المولدين ، شاعرُ معانٍ لا شاعر ألفاظ .

٦ ــ تبلور المواضيع :

مال بشّار إلى المقطوعات فقلّ عدد الأغراض في القصيدة الواحدة عنده ، وأصبحت أكثرُ مقطوعاته موضوعاتٍ مطوّلةً أو موجزة ، ولكنها تامة أو شبه تامة ، كقوله في مقطوعته المشهورة :

أيُّها الساقيانِ ، صُبّـــا [1] شرابي واسْقِياني من رِيق بيضاءَ رُودِ !

٧ ــ المبالغة :

ولقد لَفَتَ بعضُ الدارسين النظرَ إلى أن بشّاراً يبالغ . غيرَ أنّ مبالغةَ بشّارٍ لا تتعدى عدداً من التشابيه والكِنايات ، كقوله أحياناً :

إن في بُرْديَّ جِسماً ناحـــلاً لو تَوَكّأتُ عليه لانْهدمْ !

أو قوله في المديح :

---

(١) صب : أراق .

حرّم الله أن ترى كابنِ سَلْمٍ عُقْبةِ الخيرِ مُطْعِمِ الفقراء .

ثم جرى مجرى ذلك مما لا يحتاجُ إلى درس ولا يمكن أن يوازن بالمبالغة التي في شعر أبي تمام والمتنبي مثلاً .

٨ ــ العلم والآراء في شعره :

وبَشارٌ ليس شاعراً وجدانياً فحسْبُ ، بل هو عالم مفكر يبثّ في شعره كثيراً من علمه وآرائه على ما سترى في باب الأدب والحكمة (راجع فنونه) . إن معاصريه كانوا يتعجّبون من سَعة إدراكه وكَثْرة معانيه في شعره (غ ٣ : ٢١٤) .

٩ ــ الايجاز والوضوح :

ان جانباً من المقطوعات التي بين أيدينا من شعر بَشار قطَعٌ من قصائدَ ، ولكنّ هنالك مقطوعاتٌ هي أيضاً بلا ريبٍ قطع تامةٌ أصلاً . وكان إذا أطال بَشار قصيدة ، فإنه لا يطيلُ في تقليبِ المعاني على أوْجهها ولا يكرّر المعنى الواحد في القصيدة الواحدة .

ومَع هذا كُلّهِ فإن شعرَ بَشار واضحٌ مفهومٌ بأدنى تأملٍ لا غموضَ فيه ولا تعقيد ، وليس فيه معانٍ بعيدة .

١٠ ــ تفاوت شعره :

ولكنّ النقادَ مجمعون على أن شعرَ بَشارٍ مُتفاوتٌ : بعضُه جيدٌ بالغٌ في الجوْدة وبعضُه ساقط ركيك . ولقد عُوتب هو في ذلك واعتذر له ، قيل له يوماً : « إنّك لتجيءُ بالشيءِ الهَجين المتفاوت ... فبينما تقول شعراً تُثير به النَّقعَ وتخلَعُ به القلوب ، مثلَ قولك :

إذا ما غَضِبنـــا غضبةً مُضَرِيّةً هتَكْنا حِجاب الشمس أو تُمْطرَ الدما .

إذا ما أعَرْنــا سيداً من قبيلـــةٍ ذُرى مِنْبَرٍ صلّى علينا وسلّما !

تقول :

رَبابةُ رَبّةُ البيتِ تَصُبُّ الخلَّ في الزيت ؛
لها عَشرُ دَجاجاتٍ وديكٌ حسن الصوت .

فقال : لكُلٍّ وجهٌ ، فالقولُ الأولُ جِدٌّ ؛ وهذا قلته في رَبابةَ جاريتي ... وهو عندها أحسنُ من « قِفانَبْكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ » عندك (غ ٣ : ١٦٢ – ١٦٣) » . واعترف بَشارٌ مرة ثانية بأن هنالك أبياتاً كان يعبَثُ بها في حَداثته (غ ٣ : ١٨٠ ، راجع ١٥٦) ، ولذلك جاءت ركيكة .

١١ – الجدّ والهزل :

ولا ريبَ في أن التفاوتَ في شعره راجع في أكثرِ الأحيان إلى وقوفه موقف الجِدّ أو الهزل حيناً بعد حين . ذكر الأصمعي (غ ٣ : ١٤٩) أن بَشاراً يصلُحُ للجِدّ والهزل . غيرَ أن قصائدَ بَشارٍ الكبرى جِدّ كُلُّها في الأغلب ، وأما الهزل فيستقر في عدد من المقطوعات ومن الأبيات المفردة مما تراه في الرواية التالية . قال محمدُ بنُ الحجّاج ... (غ ٣ : ٢٣١ – ٢٣٢) : « جاءنا بَشار يوماً فقلنا له : ما لك مُغْتما قال : مات حماري فرأيته في النوم ، فقلتُ له : لِمَ مِتّ ؟ ألم أكن أُحسنُ إليك ! قال :

سيّدي ، خُذْ بي أتاناً عند باب الأصبهاني ،
تيّمتــني ببَنــانٍ وبدَلٍّ قد شجاني .
تيّمتني يومَ رُحنــا بثناياهــا الحِسان ،
وبغُنــجٍ ودلاَلٍ سَلّ جسمي وبراني .

ولها خــدٌ أسيـــلٌ مثلَ خد الشيفران .
فلذا ميتّ ، ولو عِشـ تُ إذاً طال هَواني !

١٢ ــ التهكم :

والكلام على الهزل يقودُنا إلى الكلام على التهكم . ومعَ أن التهكّمَ في نثرِ بشار أكثرُ ، فإنه في شعره كثير أيضاً ، وهو لاذعٌ مرٌّ فيه فِسْقٌ كثيرٌ وهزؤ بالغ . وأكثرُ تهكّمه يدور على الذين كانوا يَدّعون النسب العربيَّ الخالص ، أو النسبَ الدينيَ الرفيع ، أو أنه يتناول النَيْلَ من أعراض خصومه . وقد يتناولُ الهزؤَ بالعيوبِ الجِسمانية كما اتفق له معَ واصلِ بن عطاء ، أو بالغَباوة أو التعريضَ بالكِفاية الإدارية والسياسية ، نحو قوله (غ ٣ : ١٣٩ ، ١٩٠) :

* أصبحتُ مولى ذي الجلال [١] وبعضهم
مولى العُرَيْب، فخُذْ بفضلِكَ فافخَرِ .
مولاكَ أكــرمُ من تمــيمٍ كُلِّهـــا
أهل الفَعال ومن قُريشِ المشعر [٢] .
فارجِـــعْ إلى مــولاك غــيرَ مُدافَعٍ
سُبْحانَ مولاك[٣] الأجــلِّ الأكبرِ .
* ارفِق بعمرٍو إذا حرّكتَ نِسْبَتَـــه
فإنّــه عــربيٌّ من قواريـــرِ [٤] .

---

(١) ذو الجلال : الله – هو هنا لا يرى فضلا في أن يكون غير العربي مولى لقبيلة عربية . والأبيات مبنية على الحديث الشريف : أنا مولى من لا مولى له (أنظر ما قبل) .
(٢) فيها التفات (يقصد : مولاي) . الفعال : الفعل الكريم . المشعر : المكان يقام عنده بجانب من العبادة (في الحج خاصة) . قريش المشعر : قريش البطحاء (الساكنون في مكة نفسها لا حولها) .
(٣) راجع شرح البيت السابق .
(٤) زجاج .

ولما [1] وقعتِ الواقعة بين بَشار وواصلِ بنِ عطاء قال بَشارٌ يهجو واصلاً ويعيّره بطول عنُقه ويذمّ رأيه في تكفير الخوارج لأنهم كفّروا علياً كرّم اللهُ وجهَه :

مـا لي أشايع غزّالاً لـه عنُـقٌ ... كنِقنِق الدّوّ إن ولّى وإنْ مَثَلا.
عنُقُ الزُّرافةِ ! ما بـالي وبالُكُم ... تكفّرون رِجالاً كفّروا رَجُلا !

وزار بَشّاراً صديقٌ وسأله عن بيتِ صديقٍ لهما فجعل بَشارٌ يصف له الطريقَ والسائلُ لا يفهم . حينئذ أخذ بيده وراحَ يسير به في الشوارع وهو يقول (غ ٣ : ٢٢٥) :

أعْمَى يقودُ بصيراً ، لا أبا لَكُمُ. ... قد ضلّ من كانتِ العُميان تهديهِ !

ولعل تهكمه على الإدارة والسياسة كان أبلغ وأشهر وأدهى وأمرّ، فلقد تهكّم على والي البصرة صالح بن داوود وعلى أخيه وزير المهدي يعقوب بن داوود، وعطف في أثناء ذلك على الخليفة المهدي نفسه (غ ٣ : ٢٤٤ ، ٢٤٥) :

• همُ حملوا فـوق المنـابرِ صالحـاً
أخاك ، فضجّت من أخيك المنابرُ .
• بني أميّةَ هُبُّـوا طـال نومُكُمُ ،
إنّ الخليفةَ يعقوبُ بـن داوود .
ضاعت خِلافتُكُمْ ، يا قومُ ، فالْتَمِسوا
خليفـةَ اللهِ بـين الـزِّقّ والعود .

١٣ - حضور بديهته :

وكان بَشارٌ حاضرَ الذِهن سريع الجواب ، وكان أيضاً يَبْتَدِهُ الشعرَ

(١) إن جانباً مما ذكر هنا قد مر من قبل عند الكلام على عناصر شخصيته .

أحياناً ، ولكن قصائدَه الكبرى كانت مُرَوّاة . إنَّ بَشّاراً يفتخر بقوله الشعرَ بَداهةً ، قال (البيان والتبيين ١ : ٧٢) :

فهذا بَديهٌ لا كتحبيرِ قائل ... إذا ما أراد القول زوَّره [1] شهرا !

وقد أحصى الأصفهاني لبشارٍ مواقفَ قال فيها الشعر على البديهة ، ولكن في مناسباتٍ عارضة ومواقفَ أقرب إلى الهزْل والمباسطة (غ ٣ : ١٦٦ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢٢٠ – ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤) .

١٤ – نسبته إلى القدماء :

عاش بَشارٌ أربعين عاماً في العصر الأموي . ومعنى ذلك أنه قضى أكثر من نصف حياته مع الشعراء الذين يُعَدّون في القدماء . وما دام الرجل قد عاش في عصرين فيجب أن يَحملَ شعرُه خصائصَ العصرين معاً . إلاّ أن هنا مكانَ ملاحظةٍ . إذا كنا نَعْني أن بشاراً نظمَ الشعرَ في العصر الأموي على الأسلوب القديم ، ثم لما جاء العصر العباسي نظمه على الأسلوب المُحدَث فهذا خطأ قد وقع فيه كثير من المتأدبين . وإذا كنا نعني أن الخصائص المولّدة ظهرتْ في شعر بشارٍ منذ العصر الأموي فنحن على حقّ .

إن أغراض بَشارٍ في الغزل والهجاء والمجُون والمديح وما إلى ذلك ، مما تظهر عليه الخصائصُ المولّدة أجلى ظهورٍ ، تَرجِعُ إلى العصر الأموي لا إلى العصر العباسي . تأمل قوله مثلا (٦ : ٢٤٧ ، ٢٥٢ ، ٢٤٤) :

* يا عبدَ حبُّك شفّني شفّا ، ... والحُب داءٌ يُورث الحتْفا .
والحب يُخفيه المُحِبُّ لكي .. ... لا يُستَرابَ به وما يَخْفى .

---

(١) حسنه ، زوقه .

• عبدَ يـا قُرَّةَ عيـنـي ، أنصِفي ، روحي فِـداكِ
عـاشقاً ليس لـه ذِكْـرٌ ولا هَـمٌ سـواكِ !
• لمـا طَلَعْـنَ من الرقيـقِ عَلَيَّ بالبَرَدان خمسا ،
وكأنهُـنَّ أهِلَّـةٌ تحت الثِّياب زَفَفْنَ شمسا ؛

فهذه الأبيات نُظمت في العصر الأموي ولكنها عباسية بخصائصها . وتعليلُ ذلك سهل ، وهو أن الخصائصَ التي برزتْ بروزاً واضحاً في العصر العباسي بدأتْ فعلاً منذ أواسط العصر الأموي . خذ مثلاً عُمَرَ ابن أبي ربيعة أو وضاح اليمن أو غيرَهما من الشعراء الأمويين تجدْ في شعرِهم كثيراً من الخصائص التي يجب أن تُعَدَّ في الشعر المحدَث المولّد .

ثم إنك إذا رَجَعْتَ البصرَ كرَّة ثانية رأيتَ في ما نظمه بَشارٌ من الشعر في العصر العباسي قصائدَ تحملُ الخصائصَ الأموية القديمة كأرجوزته : « يا طللَ الحيِّ بذاتِ الصمّد » ، أو كقصيدته في هجاءِ المنصور التي قلّبها في ما بعد إلى هجاء أبي مُسلمٍ الخراساني :

أبا جعفرٍ ، ما طولُ عيشٍ بدائمٍ ، ولا سالمٌ عما قليـلٍ بسالمٍ !

• • •

ومعَ أنهم قالوا إن بَشاراً لم يُعْرَفْ أنه سرق شعراً قطّ لا جاهليا ولا إسلامياً (غ ٣ : ١٩٨) فإنهم رَوَوْا ، في ما رَوَوْا ، أنه قلد نفراً من الجاهليين ، من ذلك أن بَشاراً نفسَه (غ ٣ : ١٩٦ العمدة ١ : ٢٦٠) قال : لم أزلْ منذ سمعتُ قول امرىءِ القيس في تشبيههِ شيئين بشيئين في بيتٍ واحد حيث يقول :

كأنّ قلوبَ الطيرِ رَطْبـاً ويابساً ،
لدى وُكرِها ، العُنّابُ والحشَفُ البالي ،

أُعْمِلُ نفسي في تشبيه شيئين بشيئين في بيتٍ واحد حتى قلت :

كأن مُثارَ النَّقْعِ فوق رؤوسنا وأسيافَنا ليلٌ تَهاوَى كواكبُهْ .

ولقد قَرَنَ الرواةُ بشاراً بامرىءِ القيس حينما جعلوا أحسنَ الشعراء ابتداء (أي مطالعَ قصائدَ) في الجاهلية امرأ القيس في « قِفا نبكِ » ، وفي الإسلام القَطاميَّ حيث يقول : « إنّا مُحيُّوكَ ، فاسلَمْ ، أيُّها الطللُ » ، ثم في المُحدَثين بَشاراً حيث يقول : « أبى طللٌ بالجِزْعِ أن يتكلما » (غ ٣ : ١٤٨) . وكذلك شبهوه بامرىءِ القيس من بابٍ آخر ، ذلك لأنه تقدم على المُحدَثين فأخذَ المُحَدَثون عنه كما تقدَّمَ امرُؤ القيس على الجاهليين فأخذوا عنه (راجع العمدة ١ : ١١٠) . وذكرَ الصولي (أخبار أبي تمام ٧٦) « ان كلَّ مُحسنٍ بعدَ بشارٍ لائذٌ ببشار ومنتسب إليه في أكثرِ إحسانه ! »

وزعَم بعضُهم أن بَشاراً سرق أبياته في المَشورة من المتلمس [1] ، ولا وجهَ لذلك . أما الأصمعي فشبّه بَشاراً بالنابغة لكثْرة فنونه وسَعة تصرُّفه في قول الشعر (غ ٣ : ١٤٩) وشبهه بعضُهم بالأعشى لقُوة طبعه وحلْية شعره [2] .

والظاهرِ البيّنُ أن بشاراً كان مُعْجَباً بجرير بنَ عَطيّة ، فقد مرّ معنا أنه هجاه ليردَّ عليه فتعلوَ بذلك منزلتهُ . ثم رأيناه يعارِضُ قصيدة جرير :

بانَ الخليطُ ، ولو طُوِّعتُ ما بانا ؛ وقطّعوا من حِبال الوَصْل أقْرانا ؛

ويُضَمّن عدداً من أبياتها في قصيدته (غ ٣ : ١٦٥ – ١٦٦) :

وذاتِ دَلٍّ كأن البدرَ صورتُها
باتت تُغنّي عميدَ القلب سكرانا :

---

(١) غ ٣ : ١٩٧ و ١٩٨ س ، تاريخ بغداد ٧ : ١١٥ .
(٢) العمدة ١ : ١١٠ ، راجع غ ٣ : ١٤٩ .

(إن العيونَ التي في طرفِهــا حَــوَرٌ
قَتَلْنَنا ثم لَمْ يُحيِــينَ قَتْلانا) .

فقلت : أحسنتِ ، يا سُؤلي ويا أمَلي ،
فأسمعيني - جزاكِ اللهُ إحسانــا :

(يا حبّذا جبلُ الرَّيّانِ من جبــلٍ ،
وحبذا ساكنُ الريــان من كانا) .

وقالوا : تُوُفّيَ ابنٌ لبشارٍ فجزِعَ عليه جزعاً شديداً، وجعلنا نُعزّيه ونُسلّيه فما يُغني ذلك شيئاً ، ثم التفت إلينا وقال : لله دَرّ جريرٍ حيث يقول ، وقد عُزّيَ بسوادةَ ابنهِ :

قالوا : نصيبُك من أجرٍ ! فقلتُ لهم :
كيفَ العزاءُ وقد فارقتُ أشبالي ؟

مما يدلّ على إعجابه بجرير .

خصائصه اللفظيّة

١ ــ ألفاظه :

والغالبُ على شعرِ بشارٍ فَصاحةُ الألفاظ ، وقد سُئِلَ : « بمَ فُقْتَ أهلَ عَصْرِكَ وسبقتَ أبناء عصرك في حسن معاني الشعر وتهذيب ألفاظه ؟ قال : لأني لم أقبلْ كُلَّ ما تُورِده علي قريحتي ويُناجيني به طبعي ، ويبعثه فكري ..» (العمدة ٢ : ٢٢٧) . إن بشاراً كان ، إذن ، يهذّبُ ألفاظه أحياناً . ثم هو كما قال ابن رشيق أيضاً (العمدة ١ : ١٠٤) من القوم الذين « يذهبون إلى فخامة الكلام وجزالته على مذهب العرب من غير تصنع كقوله :

إذا ما غَضِبْنا غَضْبَةً مُضَرِيَّةً
هتكْنا حِجاب الشمس أو قطرتْ دما .
إذا ما أعرْنا سيِّداً من قبيلةٍ
ذُرى مِنْبَرٍ صلّى علينا وسلّما !

وهذا النوع أدلُّ على القوة وأشبهُ بما وقع فيه من موقع الافتخار . وكذلك ما مُدح به الملوك يجب أن يكون من هذا النحْت » .

وألفاظ بشارٍ عاريةٌ عن الخطأ ، قيل له (غ ٣ : ١٤٩ ــ ١٥٠) : « ليس لأحدٍ من شعراءِ العرب شعرٌ إلا وقد قال فيه شيء استنكرته العرب

من ألفاظهم وشُكَّ فيه ، وإنه ليس في شعرك ما يُشكّ فيه ! قال : ومن أين يأتيني الخطأ ؟ وُلدتُ ها هنا ونشأت في حُجور ثمانينَ شيخاً من فُصحاءِ بني عُقيل ما فيهم أحدٌ يَعرِفُ كَلِمةً من الخطأ . وإن دخلتُ إلى نسائهم فنساؤهم أفصح منهم . وأيفعت فأُبْدِيتُ [1] إلى أن أدركت . فمن أين يأتيني الخطأ ! » ثم إن بشاراً كان بصيراً باللغة يَعرِفُ من غريبها ما قد يخفى على نفرٍ من العرب الأقحاح ، كما ترى في أرجوزته التي قالها في عُقبةَ بن سَلْمٍ رداً على عُقبةَ بنِ رُؤبةَ بن العجاج : « يا طللَ الحيِّ بذات الصَّمْد » (غ ٣ : ١٧٥ – ١٧٧ ، ثم راجع ٣ : ١٥٢ ، ١٩٠) ؛ أو في مدحهِ لسُليمانَ بنِ هشامِ بنِ عبد الملك (غ ٣ : ٢١٧ – ٢١٨) :

سيَكفي فتىً من سعيهِ حَدُّ سيفه
وكُورٌ عِلافيٌّ ووَجْناءُ ذِعلِب [2] .
إذا استَوْعَرَتْ دارٌ عليه رمى بها
بناتِ الصُّوى ، منها رَكوبٌ ومُصْعَبُ [3] .

إلا أنه كان « يحشو شعره ، إذا أعوزته القافيةُ والمعنى ، بالأشياءِ التي لا حقيقةَ لها ... من ذلك قوله :

• ولها خدٌ أسيلُ ... مثل خد (الشفيران)
• غنني للغريض يا (ابن قِنانِ) ... .
• . . . . ووافا ... ني هلال السماء في (البردان)

---

(١) أرسلت إلى البادية .
(٢) كور علافي : رحل (سرج) جيد ؛ ابن علاف تنسب إليه الرحال الجيدة . وجناء ذعلب : ناقة سريعة .
(٣) الصوة (بضم الصاد وتشديد الواو جمعها صوى) : حجر يوضع علامة في الطريق ، للدلالة أو لتقدير المسافة . الركوب : الناقة الهادئة . المصعب : الناقة التي يصعب ركوبها – إذا اشتد المقام علي في أرض ركبت نياقي وأسرعت في اجتياز الصحارى .

• دست إليها (أبا مجلز) ، واي فتى إن أصاب اعتزمْ !

وكان كثيراً ما يحشو شعره بمثل هذا » (راجع غ ٣ : ١٦٣ – ١٦٤ ، ٢٣١) .

ولقد استدرك الرواة على بشار بضعة أحرف من الخطأ في قوله :

• فالآنَ أقْصَرَ عن سُمَيّةَ باطلي ،
وأشار (بالوَجَلى) علي مشير .
• على (الغَزَلى) مني السلامُ ، فربما
لهوتُ بها في ظِل مرؤومة زهر .
• تُلاعِبَ (نِينان) البحار ، وربما
رأيتُ نفوسَ القوم من جَرْيِها تجري .

قالوا : ولم يُسمع من الوَجَل والغزل صيغة « فَعَلى » ؛ ولم يسمع جمع « نون » (الحوت ، السمكة) على « نينان » (راجع غ ٣ : ٢٠٩ ، ٢٤٢) .

٢ – تراكيبه :

وشعر بشار متينٌ كلُّه سواء في ذلك شعرُه الأموي كقوله في مديح يزيد ابن عُمَر بن هبيرة :

جفا وُدّه فازورّ أو ملّ صاحبُهْ
وأزْرى به ألاّ يزالَ يُعاتبُهْ[1] .

أو كقوله في العصر العباسي يمدح ابراهيمَ بن عبد الله بن الحسن ويهجو أبا جعفر المنصورَ في القصيدة التي قَلَبها – فيما بعدُ – فجعلها مديحاً للمنصور وهجاءً لأبي مسلمٍ الخراساني :

---

(١) راجع القصيدة في باب الوصف ، ص ٣٤ او ما بعد .

تجرّدتَ للإسلام تعفــو سبيلَــــه وتُعري مَطاه للّيوثِ الضراغمِ .[1]
فما زِلْتَ حتّى استنصرَ الدينُ أهلَه عليكَ فعاذوا بالسيوف الصوارم[2] .

٣ – الصناعة في شعره :

إنّ أوجهاً كثيرةً من وُجوه البلاغة كالتّشبيه والاستعارة في الأكثر وكالجِناس والطِباق في الأقلّ كانتْ معروفةً في الجاهلية . ولكنّ « البديعَ » خاصةً – كالجِناس والطِباق والتَوْرِيَة – اتّسعَ القولُ فيه في العصر العبّاسيّ . ذكَرَ عبدُ الله بنُ المعتز في كتاب « البديع » (ص ١) أنّ بشّاراً ومُسلماً (ابن الوليد) وأبا نُواسٍ لم يَسْبِقوا إلى هذا الفنّ ، ولكنّه كَثُرَ في أشْعارهم وعُرِفَ في زمانهم .

وذكر ابن رشيق البديع فقال (العمدة ١ : ١١٠) : أولُ مَنْ فتَقَ البديعَ من المُحدَثين بَشارُ بن برد و (إبراهيم) بن هِرمة ... ثم اتّبعهما ، مقتدياً بهما ، كُلثومُ بنُ عمرو العتّابي ومنصورٌ النّمِريّ ومسلمُ بن الوليد وأبو نُواسٍ واتّبع هؤلاء حبيبٌ الطائي (أبو تمام) والوليدُ البحتري وعبدُ الله ابن المعتز...» . وفضّل الجاحظُ في ذلك بشاراً حينما قال (البيان والتبيين ١ : ٥٩) : « ولم يكُنْ في هؤلاء كُلّهم أصوبُ بديعاً من بشارٍ وابن هِرمة » .

ويظْهَرُ مما ذَكره الأصفهاني أنّ بَشاراً تجاوز « مذهبَ الأوائل » ، أي أسلوبَ القدماء في الشعر ، حينما أكثَر مِنَ البديع في شعره ، وبذلك كان

---

(١) هذا البيت هجاء (في المنصور أو في أبي مسلم) . تجردت للاسلام (بذلت كل جهد في محاربة الإسلام) تعري مطاه (تكشف ظهره وتجعله مهيأ) لليوث الضراغم (للأسود الجائعة المفترسة) لتثب عليه وتفترسه . تعفو : تمحو .

(٢) ثم استمررت في ذلك حتّى (مل المسلمون) ولجأوا إلى أهل الدين (آل البيت: أحفاد الرسول) فعاذوا (لجأوا) إلى السيوف الماضية ليحاربوك بها .

رأس المحدثين ! أما رواية الأغاني فتقول (غ ٣ : ١٤٧) :

« سُئِلَ الأصمعيُّ عن بشارٍ ومَروانَ (بنِ أبي حَفصةَ ، ت ١٨١ هـ) أيُّهما أشعرُ ؟ فقال : بشّارٌ ! فسُئل عن السبب في ذلك فقال : لأنّ مروانَ سلك طريقاً كَثُرَ مَنْ يسلُكه فلم يلحَقْ (هو) من تقدَّمه ، وشَرِكه فيه من كان في عصره . و (أما) بشارٌ فسلَك طريقاً لم يُسْلَكْ ، وأحسَنَ فيه وتفرَّد به ، وهو أكثرُ تصرفاً (وأكثر) فنونَ شعر وأغزر وأوسَعَ بديعاً . ومَروانُ لم يتجاوَزْ مذهبَ الأوائل » . وإليك الآن أبياتاً لبشار فيها بديع . حاولْ أن تميز ما فيها لنفسِك .

* الأرض مُظلمة والنـــار مشرقة ، والنار معبودة مذ كانتِ النار .
* لا تبالي إذا أصبتَ من الخمـ ــر عَتيقاً ألاّ تكونَ عتيقا [1] .
* وإذا قلت لها : « جودي لنا » ، خرجت بالصمت عن لا ونعم [2].

* جِنّيـــة إنسيـــــــة أو بين ذاك أجلّ أمـــرا .
* ظمئت إليها فلم تسقني بِريّ ولم تشفني من سقم
فمـــا زال حتى أنابت له فراح وحل لنا ما حَرُمْ .

وربما أغرق بَشار بطلب البديع فسمُج (كتاب البديع ص ٥٠) :

طلوب ومطلوب إليه إذا غدا ، وخير خليليك الطلوب المطلَّب .

وقد أعجب ابن رشيق « بالتقسيم » عند بَشار فقال : « اختلف الناس في التقسيم : فبعضهم يرى أنه استقصاء الشاعر جميع أقسام ما ابتدأ به كقول بَشار يصف هزيمة :

بضرب يذوق الموتَ من ذاق طعمَه ويدرك من نجّى الفرارُ مثالبُهْ [3] .

---

(١) عتيق الأولى : خمر قديمة . والعتيق : المعتوق (الناجي) من النار .
(٢) سكتت ، لم تقل لا ، ولم تقل نعم .
(٣) الفرار فاعل نجى ، مثالب فاعل يدرك .

فراحوا : فريقٌ في الإسار ومثلــه قتيلٌ ، ومثلٌ لاذ بالبحر هاربه !

فالبيت الأول قسمان : إما موت وإما حياة تورث عاراً أو مَثلبة ؛ والبيت الثاني ثلاثة أقسام : أسير وقتيل وهارب ، فاستقصى (بشار) جميع الأقسام ولا يوجد في ذكر الهزيمة زيادةٌ على ما ذَكَرَ » (العمدة ٢ : ٢٠) .

٤ ــ ديباجة شعره :

وشعر بشّار سلس عذب رقيق ، قال الحُصري عن بَشّار (زهر الآداب ٢ : ١١٩) : « وهو أرق المحدثين ديباجة كلام » . وقال عنه ابن رشيق (العمدة ١ : ١١٠) : « تنشِد أقصر شعره عَروضاً وألينه كلاماً فتجد في نفسك هِزة وجَلَبة من قوة الطبع » ، وهذا ما جعل لِشعر بشّار سيرورة على الألسن عجيبة ، حتى قال ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ و ١٢٨٢ م) « وشعر بشّار كثير سائر (١ : ١٢٥) » . أما رواية الأصفهاني عن نجم ابن النّطاح فتدل على مقدار تلك السيرورة دلالة واضحة قال نجمٌ هذا : « عَهدي بالبصرةِ وليس فيها غَزِلٌ ولا غَزِلَةٌ إلاّ يَرْوي من شِعر بشّارٍ ، ولا نائحةٌ ولا مُغنّية إلاّ تتكسّب به ، ولا ذو شرفٍ إلاّ وهو يَهابه ويخاف مَعَرّةَ لِسانه » (غ ٣ : ١٤٩) .

فليس غريباً ــ بعدَ هذه الشهادات ــ أن يكونَ شعرُ بشّارٍ مُوافقاً للغناء مُطاوعاً للألحان . وقد أثبَتَ الأصفهانيُّ (في الجزء الثالثَ والجزء السادس من « الأغاني ») نحوَ اثنينِ وثلاثينَ صَوْتاً (أُغنية) لبشّارٍ ليستْ كلُّها في الغزلِ والوُجدان ، بل كان اثنانِ منها في المديح (٣ : ١٧٩ ، ١٠٣) وصوتٌ واحدٌ في المَشورة (٣ : ١٧٧ ، ٢٣٧) .

٥ ــ شكل القصيدة :

كان بشّارٌ يقول قصيداً ورَجزاً ويُجيدُ فيهما [1] . وكان يُجيد القصائدَ

---

(١) راجع البيان والتبيين ٣ : ٣٧٢ .

الطِوالَ كما يجيد القِطَع (القِصار) ، وكان بها كُلِّها مشهورا [1] .

وقد توسّع بشّارٌ في العَروض [2] ، فلم ينْظِمْ فقطْ على البحور الّتي كان الخليل بنُ أحمد قدِ استخْرَجَها كما استخْرَجَها ، بل تصرَّف في عددٍ من الجوازاتِ فيها . فقصيدةُ بَشّارٍ ، مثلاً ، ومَطْلعها :

تَحَمّلَ الظاعنــونَ وادّلَجوا　　　والقلبُ مِنّي الغَداةَ مُخْتَلِجُ ،

من بحر المُنْسرح . والمعروفُ في المنسرح أن تكونَ عَروضُه (التفعيل الأخير في صدر البيت) صحيحةً (لا جوازَ فيها) ، وضَرْبُه (التفعيل الأخير في عَجُزِ البيت) مَطوِيّةً (فيها جوازٌ معيّن : حَذْفُ الحَرْفِ الساكنِ الثاني في « مستفعلن ») . والوزنُ المألوفُ في المنسرح :

مستفعلن مفعولات مستفعلـــن　　　مستفعلن مفعولات مفتعلن .

وقد استعمل بشّارٌ العَروض مَطوِيةً (مفتعلن مكان مستفعلن) واستعمل الضَرْبَ مَطوِيّاً أيضاً في جميع أبيات تلك القصيدة . ولو أنّه اقتصر في طيّ العَروض في المَطْلع لكان له عذرٌ من التصريع (جعلِ آخرِ الشطر الأوّل مثل آخرِ الشطرِ الثاني في أوّل أبياتِ القصيدة) . ولكن بشّاراً التزمَ طيَّ العَروضِ في جميع أبياتِ قصيدتِه ، وليس ذلك مألوفاً .

ولبشّارٍ أيضاً قصيدةٌ على البحرِ المُجْتَثّ — وزْنُه : مُسْتَفْعِلن فاعِلاتُنْ فاعلاتن (مرتين) — . غير أن الشعر على هذا البحر لم يُرْوَ عن العربِ إلاّ مَجزُوءاً (ذا تفعيلَيْنِ : مستفعلن فاعلاتن) . ولكنّ بشّاراً جاء به تامّاً ، كما جاء شذوذا عند نفر من الشعراء المولدين ، فقال بشّار :

---

(١) راجع العمدة ١ : ١٦٣ .

(٢) راجع مقدمة محمد الطاهر بن عاشور (ديوان بشار ٦٢ – ٦٣) .

يا مالكَ الناسِ في مَسيرِهِـــــمُ   وفي المُقام الخطير مِنْ رَهَبِه .

ويمكن أن تكونَ هذه القصيدة من المُنْسرح (بعَروض وضَرْبٍ مَطْوِيَّيْنِ) لا من المجتثّ [1] .

(١) راجع «ديوان بشار بن برد» (الناشر ، محمد الطاهر بن عاشور) ١ : ٦٣ ، الحاشية ٣ - التعليق للواقفين على طبع الديوان : محمد رفعت فتح الله ومحمد شوقي أمين .

فنون بشّار في الشّعر والنثر

لم يكن بشار شاعراً فحسبُ ، فقد قال الجاحظ (البيان والتبيين ١ : ٥٧) : « ومن خطباء الأمصار وشعرائهم ... بشارٌ الأعمى ... وكان شاعراً راجزاً سجّاعاً خطيباً صاحب منثور ومزدوج ، وله رسائل معروفة » . ولقد نقل الأصفهاني ذلك في كتابه (غ ٣ : ١٤٥) . من أجل ذلك يجب أن نعالج إنتاج بشّار من ناحيتين : ناحية النثر وناحية الشعر .

نثره :

إذا كان الشعر الذي رُوي عن بَشار قليلاً فإن النثر المأثور عنه أقل . ونستطيع أن نرى نماذج من هذا النثر في أجوبة لبشار مبثوثة في كتاب الأغاني ، أو في بعض المقاطع المنثورة هنا وهناك . وخصائص بشّار الفنية في نثره كخصائصه في شعره ، إلا أنهم روَوا أنه كان في النثر أكثر تهكماً . وما دمنا لا نستطيع تفريع خصائص النثر وفنونه عند بشار فلنكتف ببعض نماذجه :

دخل بشّار على المهدي يعزيه (بابنته) البانوجة (أو البانوقة) فقال (تاريخ بغداد ٧ : ١١٨) : « يا ابن معدِن الملك وثمرة العلم ، إنما الخلق للخالق وإنما الشكر للمنعم ؛ ولا بد مما هو كائن . كتاب اللهِ عِظَتنا ورسول الله ﷺ أسوتنا .

فأية عِظة بعدَ كتابِ الله (أعظمُ وأصدقُ ؟) ، وأيّةُ أسوة بعدَ رسولِ الله (أمثلُ ؟) . ماتَ (رسول الله) . فما أحسنَ الموتَ بعدَه » .

ـ ومن أسجاعه في الزمان وأهله :

« لقد عِشْتُ في زمانٍ وأدركت أقواماً لو احْتَفَلَتِ الدنيا ما تَجَمَّلت إلاّ بِهِمْ . وإنيّ الآنَ لَفي زَمَنٍ ما أرى فيه عاقلاً حصيفاً ، ولا فاتِكاً ظريفاً ، ولا ناسكاً عفيفاً ، ولا جواداً شريفاً ، ولا خادِماً نظيفاً ، ولا جليساً خفيفاً ، ولا مَنْ يُساوي على الخِبرة رَغيفاً » .

سرق سَلْمٌ الخاسر ، تلميذ بَشار وراويته ، بيتاً لبشّار ... فقال له بشار : أفتأخذ معانيَ التي عُنيت بها وتعبت في استنباطها فتكسوهَا ألفاظاً أخف من ألفاظي حتى يروى ما تقول ويذهب شعري ! لا أرضى عنك أبداً » (غ ٣ : ٢٠٠) .

وعيّر بَشاراً رجلٌ بِضعةِ النسب فقال له بَشار : « لأصلي أكرم من الذهب ، ولفَرعي أزكى من عمل الأبرار . وما في الأرض كلب يوَدّ أن نسبك له بنسبه ، ولو شئت أن أجعل جواب كلامك شعراً لفعلت ، ولكن موعدك غداً بالمِربَد » (غ ٣ : ٢٠٢ ـ ٢٠٤) .

وافتخر بشّارٌ مرة بنفسه واعتذر بفقره فقال : « والله ما يُقعدني عن شأوه بُعد النسب ، ولكن قلّة النشب . وإنيّ لأجود بالقليل ، وان لم يكن عندي الكثير . وما على من جاد بما يَملِك أن يَهب البِدَر [1] .

ـ مَدَحَ بشّارٌ المهديّ بقصيدةٍ فلم يُثِبْهُ المَهديُّ عليها ، فقال بشّار :

« واللهِ ، قد مدحتُه بشعرٍ لو مُدِحَ بهِ الدَهْرُ ما خُشِيَ صَرْفُهُ

(١) البدرة بالفتح : عشرة آلاف درهم .

على أحدٍ [1] . ولكنني كذبْتُ في العمل (في مدح المهدي) فكُذِبْتُ في الأملَ » .

– وقال بشارٌ في التعليق على أبياتِ شعرهِ في « المَشورة » :

« ان المُشاوِرَ بين صوابٍ يفوزُ بثَمرته أو خطأ يُشارِكُ في مكروهِه » .

(١) ... لعف الدهر عن ظلم الناس .

فنون شعره

قال ابنُ رشيقٍ « يجب للشاعر أن يكونَ متصرّفاً في أنواع الشعر من جِدّ وهزل ، وألاّ يكونَ في النسيب أبرعَ منه في الرثاء ، ولا في المديح أنفذَ منه في الهجاء ، ولا في الافتخار أبلغَ منه في الاعتذار ، ولا في واحد مما ذكرتُ أبعدَ منه صوتاً في سائرها . فإنه متى كان كذلك حُكِمَ له بالتقدُّم وحاز قَصَبَ السَبْق ، كما حازَها بشارُ بنُ بُرْدٍ وأبو نُواس بعدَه » (العمدة ٢ : ٩٩) . ونقل الاصبهاني (غ ٣ : ١٤٥) عن الجاحظ أن بَشاراً كان من المتفنّنين في الشعر القائلين في أكثرِ أجناسِه وضُروبه » (راجع غ ٣ : ١٤٧ ، ١٤٩ — ١٥١) .

١ — فخره :

شَهِدَ بشارٌ عصرَ الفخرِ القَبَلِيّ في الدولة الأمويّة وعَهْدَ الفخر الشَخصي حينما نهض الموالي بعَمود الشعر العربي ، ولم يجدوا ما يفخَرون به من أنسابهم فافتخروا بأنفسِهم وأشعارهم . ولقد تَحَيّلَ هؤلاء أيضاً للافتخار بالنسب تقليداً للشعراء العرب الذين كانوا يتَحدَّوْنهم أو يَحُطّون من أقدارهم . وإنك لتَجِدُ هذه الأنواعَ كُلّها عند بشار .

إن أساسَ الفخر عند بَشارٍ فخرُ الإنسانِ بفضائلِ نفسِه لا بنسَبهِ (غ ٣ : ١٣٩) :

أصبحتُ مَوْلى ذي الجَــلال وبعضُهم
مولى العُرَيبِ ، فخُذْ بفخرِك فافْخُرِ !

من أجل ذلك تراه كثيراً ما يفتخرُ بنفسه بالصبر على المشاقّ وبالشجاعة وبالكرم وبالمجد ثم يضُمّ إلى ذلك الفخرَ بشعره (الخالديان ٩٠ ، ٢٦ — ٢٨ ، ١٥٨ — ١٥٩) :

* وقد علِمتْ عُليــا مَعَــدّ بأنــني
أنَا السيفُ أكْدَى كان فيّ مَضاءُ . (١)
تَزِلُّ القــوافي عــن لساني كأنهــا
حُماةُ الأفاعي ريقُهنّ قضــاء . (٢)
* وما أنَا راضٍ بالهــوان إذا احْتَــبى
على الذلّ في دار الهوان رَتُــوع . (٣)
إذا الأمرُ لم يُقبِلْ عــليّ بوجهــه
فلي مسلَكٌ باليَعْمَلات وسيــع . (٤)
إذا حاجــةٌ ألقت عــلي بَعاعَهــا ،
رَكِبت وحسْبي مُنصُل وقطيع . (٥)

---

(١) عايا معد : أول العرب : علم على جميع العرب . أكدى : بخل ، أكدى السيف : لم يقطع — لم أحظ بشعري عند كثيرين لأنني مولى ولست بعربي ، مع أنني شاعر كبير (سيف فيه مضاء) .
(٢) يجري الشعر على لساني بكثرة ، وهو شديد الأثر أغلب به الشعراء . وقد أخطأ بشار إذ ظن أن للحية حمة أي إبرة في مؤخر ذنبها كالنحلة ، ومرد ذلك الخطأ إلى عماه .
(٣) احتبى على الذل : قبل بالذل . رتوع : راتع ، راض بالذل .
(٤) إذا الأمر لم يقبل علي بوجهه : إذا لم أنل ما أريد بيسر وإكرام. اليعملات : الإبل القادرة على العمل ، على السفر . مسلك وسيع : طريق واسعة .
(٥) البعاع : المطر ، أو الثقل. إذا حاجة ألقت علي بعاعها : أي ألقت علي نفسها (إذا احتجت) ركبت =

* إني وجَدِّكَ مــا رأيــي بمنتشرٍ ،
عند الحِفاظ ، ولا أمري بمردود . [1]
قــد أسلُب المَلِــكَ الجبــارَ حُلّتَه
في مأقِطٍ مثل حَدِّ السيف مشهود . [2]
وما أذَبِّب عن حَوْضي لأمنَعَــه ؛
لا خيرَ في حوض قوم غــيرِ مورود [3] !
يُرجى معَ المُزْنِ معروفــي لطالبه ،
ويُتّقى الموتُ من حيّاتيَ السود . [4]
* تفوّقتُ أخــلاقَ الصِّبا ، وتقدّمتْ
همومي ، حتى لم أجِدْ مُتَقَدَّما . [5]

ولكنه مع هذا يفتخر بأصله الفارسي وبولائه العربي ، ببني عُقَيل ؛ وربما افتخر بمُضَرَ دون اليمن . يمثل ذلك كله (غ ٣ : ١٣٨ ، ١٣٩ ، المختار ١٦٣) :

= نياقي ومهي منصل (سيف) وقطيع (قضيب تعمل منه السهام للقوس) فقط .
(١) انتشر الرأي : تفرق ، قل صوابه . الحفاظ : الدفاع عن النفس والرأي.
(٢) الملك الجبار : القوي المستبد . حلته : الحلة بالكسر : المدينة العاصمة . والحلة بالضم : الثوب . أتغلب على الملك . مأقط : موضع القتال . مثل حد السيف ضيق . مشهود : يشهده (أعداء لي) كثيرون .
(٣) ذبب : زجر ، طرد . لا أمنع الناس من الاستقاء من مائي، لأن في استقاء الناس من مائي دليلا على فضلي وكثرة خيري بخلاف رأي الجاهليين : ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ... لأن الماء في البادية كان قليلا عزيزاً ، وهو في البصرة حيث يسكن بشار كثير .
(٤) ينتظر الناس معروفي (وينتفعون به) كما ينتظرون المطر . ويعني بشار أن الحيات السود تميت بلدغها ...
(٥) تفوق : ترضع رضاعاً تاماً . تقدمت همومي : كثرت . بلغت في شبابي كل ما يبلغه شاب وكثرت همومي . متقدم (بالكسر) : لم أجد من اختبر أو كثرت همومه مثلي ، (بالفتح) : لم يبلغ أحد ما بلغت وليس لأحد من الهموم مثل ما لي .

ونُبِّئتُ قوماً بهم جِنّةٌ يقولون : من ذا ؟ وكنتُ العَلَمْ ! [1]
ألا أيُّها السائلي جاهداً ليعرفَني ؛ أنا أنفُ الكرم [2] :
نمت في الكرام بني عامرٍ فروعي، وأصلي قُريشُ العَجَمْ . [3]
وإني لأُغني مَقَام الفتى وأُصبي الفتاةَ فما تعتصم [4] !
• إنني من بني عُقيلِ بنِ كعبٍ موضعَ السيف من طُلى الاعناق . [5]

وربما عطف بَشار في أثناء فخره على الحماسة فذكر شجاعته كما رأيت ، أوشجاعة رهطه وقومه (الخالديان ١٦٣ الخ) :

• إذا ما غَضِبْنا غضبةً مُضَرِيّةً
هتكْنا حِجابَ الشمس أو قَطَرتْ [6] دَما .
وإنّا لقَوْمٌ ما تزالُ جِيادُنا
تُساوِرُ مَلكاً أو تُناهبُ مَغْنما [7] .
• أمِنْتُ مَضَرَّةَ الفحشاء ، إني
أرى مُضَراً تَضُرُّ ولا تُضار .
كأن الناس ، حينَ تغيبُ عنهم ،
نباتُ الأرض أخطأها القِطار .
وقد كانتْ بتدمرَ خيلُ قيسٍ
فكان لتدمرٍ فيها دَمار .

---

(١) الجنة (بالكسر) : الجنون . العلم : الجبل المرتفع .
(٢) جاهداً : مجداً . أنف الكرم : أعظم ما في الكرم ؛ الأنف هنا ضد الذنب ، قال الحطيئة :
ومن يسوي بأنف الناقة (اسم رجل) الذنبا ؟
(٣) قريش العجم : أشرف قبائل العجم ، كما أن قريشاً أشرف قبائل العرب .
(٤) أنا معروف بالشجاعة والبراعة ومعروف باللهو والفتنة . لعل « مقام » بضم أوله !
(٥) أنا قريب جداً من بني عقيل العرب (من عظام الرقبة فيهم) .
(٦) تأتي هذه الكلمة في الأصول مختلفة الصيغ : قطرت ، تقطر ، تمطر .
(٧) تساور ملكاً : تأخذ برأسه ، تقتله . تناهب : تأخذ .

نجيٌّ مــن بــني عَيْــلانَ شُوسٍ
يَسيرُ الموتُ حيــث يُقــال ساروا .
ومــا نلقــاهُــمُ الا صَدَرْنــاً
بريٌّ منهُــمُ وهــمُ حِــرار [1] .

ومع هذا ففخر بَشار قليل بالإضافة إلى ما بقي لنا من شعره ، ولكنه فَخمٌ جَزْلُ الألفاظ فيه مبالغة وفيه تقليد ، وهو من أجل ذلك ألصقُ بالأسلوب القديم منه بالأسلوب المحدث .

٢ – المديح :

مدح بَشارٌ في العصر الأموي وفي العصر العباسي . ولكنّ مدحَه فيهما معاً كان قليلاً ، وذلك لأن الهجاء كان أغلبَ على طبعه ولأن له في ذلك فلسفةً ستراها عند الكلام على فن الهجاء عنده .

هذا المدْحُ القليلُ أراده بَشارٌ في الدرجة الاولى للتكسُّب وجرى فيه مجرى الجِدّ ، ولكن ساقه في أسلوبين : أسلوبٍ قديمٍ وأسلوب مُحْدَثٍ مولد . ولعلك تنتظر ان يكون أسلوبه القديم خاصاً بالقصائد التي قيلت في العصر الأموي ، وأسلوبه المولد خاصاً بمدائحه العباسية . ولكن ذلك لم يتفق ، فلبشار في العصرين مدائح تجري على كل أسلوب من أسلوبيه . وربما جمع بَشار في مدائحه ، وخصوصاً ما طال منها وما تقدم في الزمن ، أغراضاً كثيرة من فخر وحماسة وغزل ونسيب ووصف ، على ما عرَف الشعر القديم وبعضُ الشعر المحدث .

ولعل أقدم ما وصلنا من مدائحِ بَشار مدحه للمهلّب بن أبي صُفرة

---

(١) حرار : عطاش .

(ت ذو الحجة ٨٢ وأوائل ٧٠٢ م) وابنه يزيد – والمهلب هو الذي أتى بجدّ بشّار من خراسان إلى البصرة – . ولا ريب في ان هذه المدحة يجب أن تكون في يزيد بن المهلب وانها تتضمن إشارة إلى أبيه فقط ، فان بشاراً ولد في نحو العام الذي تُوُفّيَ فيه المهلّبُ . ومعَ اننا نَعْرِفُ من هذه المدْحة أربعةَ أبياتٍ ، فان الطابع المولّد يظهر على ديباجتها وعلى الفكرة التي فيها ، وخصوصاً في البيت الأخير منها . قال بشار (الخالديان ٦٤) :

هجرَ المَقَامــةَ لو يكون مُناخُه بأغرّ تزدحم الوفودُ ببابــه [1] .
مَلِكٌ إذا زأرتْ أسودُ قبيلـــةٍ زأرَ المُهَلّبُ وابْنُه في غابه [2] .
وألَدّ [3] بينهما الخُصومُ إذا بــدا بصواب مَنْطِقه وغيرِ صوابه (؟) .
ويكاد يُظلم حــين يُغشى بابُــه من لينِ جانبهِ ولينِ حِجابه [4] .

وفي عام ١٢٦ هـ مدح بشارٌ واصلَ بنَ عطاءٍ وفضله على غيره من الخطباء الذين خطبوا عند عبدِ الله بن عُمَرَ بنِ عبدِ العزيزِ لما تولى البصرة ، قال (غ ٣ : ٢٢٤ : راجع البيان والتبيين ١ : ٣٦) :

تَكلّفوا القولَ ، والأقوامُ قد حفَلوا
وحَبروا خُطَباً ناهيك من خُطب [5] ،
فقام مُرْتَجِــلاً تغــلي بَديهتُــــه
كمِرْجَلِ القَيْنِ لما حُفّ باللهب [6] .

---

(١) المقامة : اقامة الرجل في بلده . المناخ : النزول ، الكنى ، أغر : أبيض . كريم – كنت أترك مقامي في البصرة لو كان يتاح لي أن أنزل بباب الممدوح .
(٢) المهلب وابنه وحدهما يساويان في الشجاعة أبطال قبيلة بأسرها .
(٣) تحير .
(٤) لا يمنع أحداً من دخول بابه حتى يكاد يظلم لكثرة ما يعطي الطالبين .
(٥) حفلوا : كثروا . حبر الخطبة : تأنق فيها .
(٦) المرجل : القدر .

وجانبَ الـراءَ لم يشعُـرْ بـهِ أحد
قبل التصفُّح والإغراق في الطلب [1] .

وهذه المقطوعةُ قديمةُ الأسلوبِ ولكنها مولّدة في شكلها لأنها مقطوعةٌ لا قصيدة .

أما مدائح بَشارٍ الكبرى فنَعرِفُ اثنتين منها قيلتا في العصر الأموي ، إحداهما قصيدتُه في سُليمانَ بنِ هشامٍ بنِ عبد الملك ، حينما قَدِمَ عليه في حرّان سَنَةَ ١٢٧ هـ . وهذه قصيدة قديمة في أسلوبها وأغراضها عليها مسحةٌ من مدائحِ جريرٍ وخصوصاً في معانيها (غ ٣ : ٢١٧ — ٢١٨) :

نأتْكَ على طـول التجاوُرِ زينبُ ،
وما علمتَ أن النّوى سوف تَشْعَبُ [2] .
يرى الناس مـا تَلْقى بزينبَ إذ نأت
عجيباً ؛ وما تُخْفي بزينب أعجبُ [3] !
وقائلـةٍ لي حـين جـدَّ رحيلُنـا ،
وأجفـانُ عينيها تجـود وتَسْكُبُ :
« أغادٍ إلى حرّانَ في غـير شيعةٍ ؟ »
وذلك شأوٌ من هـواها مُغَرِّبُ [4] .

(١) كان واصل بن عطاء يلثغ بالراء ، فكان يتجنب كل كلمة فيها راء . ولكن مقدرته اللغوية والأدبية كانت عظيمة لا تمنعه من التعبير عن كل ما يريد مع اسقاط كل كلمة فيها راء .
(٢) ابتعدت زينب عنك بعد أن تجاورتما زمناً طويلا ، ولا بد للبعد من أن يفرق يوماً ما بين المتجاورين .
(٣) يرى الناس انك تحب زينب كثيراً ، مع أن حبها الذي تكتمه أعظم من حبها الذي يظهـر للنـاس .
(٤) غاد : ذاهب باكراً . حران : بلد في شمالي العراق كان فيه الممدوح والياً . شيعة : رفقة . وذلك شأو الخ : لا تحب ان أذهب إلى ذلك المكان .

فقلت لها : « كلّفتِني طَلَبَ الغنى ،
وليس وراء ابنِ الخليفــةِ مَطْلَبُ [1] .

سيكفي فتىً من سعيهِ حــدُّ سيفهِ
وكور عِــلافيّ ووَجنــاءُ ذِعْلِبُ [2] .

إذا استَوْغلتْ [3] دارٌ عليه رمى بها
بَنات الصُوى منها رَكوبٌ ومُصْعَب[4] .

فعُــدّي إلى يــومِ ارتحلتُ وسائلي
بزَوْرِك ، والرَّحّال من جاء يَضْرِبُ [5] .

لَعلّكِ أن تَسْتَيْقِــني أن زَوْرتــي
سُليمانَ من سير الهواجر تُعقِبُ [6] .

أغرُّ هِشاميُّ القنــاةِ ، إذا انتمــى
نَمَتْهُ بدورٌ ليس فيهــنَّ كَوْكَبُ [7] .

وما قصَدَتْ يومــاً مُخيلــين خيلُهُ
فتَصرِفَ إلاّ عن دمــاءٍ تَصبّبُ [8] .

وبعد أن رجَع بَشار مُغاضباً من حرّانَ إلى العراق في العام التالي مَدَحَ

---

(١) ان الغنى الذي تطلبينه لا يمكن لأحد أن يهبه إلا ابن الخليفة (سليمان بن هشام بن عبد الملك) .
(٢ ، ٤) مر شرحهما .
(٣) احتاج ؛ وفي رواية : استوعرت .
(٥) هيئي لي حاجات السفر بزورك (بعقل ؟) واعلمي أن الرحال الحقيقي هو الذي يعود راجحاً أو غانماً .
(٦) سترين ان زيارتي لسليمان بن عبد الملك ستعوض علي ما سألقاه من السفر في حر الشمس .
(٧) أغر : أبيض . القناة ؛ الأنف – هشامي القناة : أنفه مرتفع في وسطه كبني هشام ، وارتفاع الأنف من علائم الملك عندهم . نمته بدور .. : يرجع أصله إلى رجال عظام ليس فيهن كوكب (ليس في أحدهم عيب) .
(٨) إذا قصد جيشه أناساً متكبرين (مخيلين) فانه لا يرجع إلا بعد أن يريق دماءهم .

يزيدَ بنَ عُمَرَ بن هُبيرةَ بأجمل مدائحه بل بأعظمِ قصائده ، وهي قصيدةٌ قديمةُ الأسلوبِ فخمةُ الألفاظ متينة التركيب بعيدةُ الخيال مزدحمةٌ بالآراء النضيجة :

جفا وُدَّه فازورَّ أو ملَّ صاحبُهْ ، وأزرى به ألاَّ يزالَ يعاتبُهْ .

إلا أنني سأترك الاستشهاد بها إلى باب الوصف لأثبت منها هناك قدراً كبيراً حرِصاً على جمالها .

* * *

وإذا نحن انتقلْنا إلى العصر العباسي رأينا بَشاراً يحمل معه أسلوبيه : القديمَ والمُحدَثَ . فالأسلوبُ القديم يتجلّى في القصيدة التي مدح بها إبراهيمَ ابنَ عبدِ اللهِ بنِ الحسن سَنَةَ ١٤٥ هـ ثم قَلَبها وجعلها مديحاً في أبي جعفرٍ المنصور . وفي هذه القصيدة تهديدٌ ووعيد وهجاء وأدبٌ . أما المديح فيها فثلاثةُ أبياتٍ فقط حذفَ بشّارٌ ثانيهَا حينما قلبَها إلى مدح المنصور ، لأنه ينتصر فيه للعلويين خصوم العباسيين (غ ٣ : ١٥٧) :

أقولُ لبسّامٍ عليه جَلالةٌ ، غداً أرْيَحِياً عاشقاً للمكارمِ ،

مِنَ الفاطميين الدُعاةِ إلى الهدى جِهاراً ؛ ومن يَهْديك مثلُ ابنِ فاطم !

سراجٌ لعينِ المستضيء ، وتارةً يكون ظلاماً للعدوِّ المزاحم .

وكذلك مدح بشار عُقبةَ بنَ سَلْم (وكان عُقبةُ والياً على البصرة من قِبَل أبي جعفرٍ المنصور) بقصائدَ مختلفة ، إحداها أُرجوزتُه المشهورة :

يا طللَ الحيِّ بذات الصَّمْدِ ، باللهِ ، خبِّرْ كيف كنتَ بعدي .

وقد تكلَّفَ فيها الغريبَ والبَداوةِ لأنَّ عُقبةَ بنَ رُؤبةَ بنِ العجاجِ الراجزَ

قد تحدّاه ، على ما علمت من قبل . وفي هذه الأرجوزة مدحٌ وفخر وغزل وأدب أيضاً . فمن المدح فيها (غ ٣ : ١٧٦) :

اسْلَمْ وحُيِّيتَ ، أبـا المِلَـدّ ، مِفتاحَ بابِ الحدَثِ المُنْسَدّ ،
مُشتَرَكَ النَيْلِ وَرِيَّ الزَنْـد [١] ، أغـرَّ لبّـاسَ ثيابِ الحمد .
ما كان مـنـي لـك غـيرُ الـوُدّ ثم ثَناءٌ مثلُ ريـحِ الـورد .
لله أيّـامُـك فـي مَعَـدّ وفي بني قَحْطانَ غيرَ عَدّ [٢] ،
إذا الحيا أكْـدى بها لا تُكـدي تُلحم أمْراً وأمـوراً تُسدي [٣] !

ثم إن لِبشارٍ في عُقبةَ هذا قصيدةً مولدةَ الخصائصِ جميلةَ الفِكرة لعلّها ترْجِعُ إلى سَنَة ١٤٦ هـ ، وهي :

حرّمَ اللهُ أن تـرى كابـنِ سلْمٍ عُقبةِ الخـيرِ مُطعمِ الفقراء .
مالِكيٌّ تنشقُّ عن وجهـه الحـر بُ كما انشقّتِ الدُّجى عن ضياء [٤] .
إنمـا لَـذّةُ الجـوادِ ابنِ سلْمٍ في عطاءٍ ومركبٍ للّقـاء ،
ليس يُعطيكَ للرجـاء ولا الخـو فِ ، ولكنْ يَلَذّ طعمَ العطاء ،
لا ولا أن يُقـال شيمتُـه الجو دُ ، ولكنْ طبائعُ الآبـاء !
يسقُـطُ الطـيرُ حيثُ يَنتـثرُ الحَـبُّ وتُغشى منازلُ الكُرماء .
فعـلى عُقبـةَ السلامُ مقيمـاً ، وإذا سار تحتَ ظِـلِّ اللواء .

ومن مدائحِ بَشارٍ المُولّدةِ مدائحُه في خالدِ بن برمكَ فإنها ، فوقَ

---

(١) مشترك النيل : كريم يشرك الآخرين في ما يناله . الزند : قطعة حديد تقدح بها النار من الصوان . وري الزند : ذو قدرة ورأي صائب .
(٢) غير عد : كثيرة لا تعد .
(٣) إذا السماء بخلت بمطرها فأنت لا تبخل ، إذا قل المطر فجودك لا يقل . تلحم أمراً ... تبدأ أعمالا وتتم أعمالا . السدى واللحمة (بضمهما) : خيوط تمد طولا وعرضاً لنسج الثياب
(٤) يخرج من الحرب ظاهراً (ظافراً) كما يبدو ضياء الفجر في ظلام الليل .

أسلوبها المُحدَثِ ، تنطوي على مغزًى غَرَضُه التشجيع على الكرم مما لم نَعْرِفْه إلاّ في العصر العباسي :

لَعَمْري ، لقد أجْدى عليّ ابنُ برمكٍ ؛
وما كلُّ من كان الغِنى عنده يُجدي [1] .
حَلَبْتُ بشِعْري راحتَيْـــهِ فدرّتـــا
سَماحاً ، كما درّ السَحابُ معَ الرعد [2] .
إذا جئتَــه للحمــدِ أشْرق وجْهُـــه
إليك ، وأعطاك الكرامة بالحمد [3] .
لـــه نِعَمٌ في القـــوم لا يَسْتثيبُهـــا
جزاءً ، وكَيْلُ التاجرِ المُدُّ بالمُدّ [4] .
مُفيدٌ ومِتلافٌ ، سبيــلُ تُراثِـــه
– إذا ما غدا أو راح – كالجزْرِ والمَدّ [5] .
لستُ بكفّـــي كفّـــه أبتغـــي الغِنى
ولم أدْرِ أنّ الجود من كفّـــه يُعدي .
فـــلا أنَـــا منـــه مـــا أفـــادَ ذَوُو الغنى
أفدتُ ، وأعْداني فأتْلفتُ ما عندي .
أخالدُ ، إنّ الحمـــدَ يَبْقـــى لأهله
جَمالاً ؛ ولا تبقى الكنوزُ على الكَدّ [6] .

---

(١) أعطاني ابن برمك ، وما كل غني يعطي .
(٢) مدحته بشعري فأعطاني كثيراً (كما ينزل المطر بعد الرعد) .
(٣) يسر بالعطاء ويشكر الذين يطلبون منه مالا وهو يعطيهم .
(٤) استثاب : طلب ثواباً أو أجراً . وليس هو كالتاجر الذي لا يبادل ببضاعته الا مداً بمد .
(٥) يكسب المال ثم ينفقه كله ، فثروته دائماً في زيادة (من الكسب) وفي نقصان (من العطاء) كما يحدث المد والجزر على سواحل البحر .
(٦) المجد يخلد ولكن المال لا يخلد بالكد (بالشح) لأنه يتلف بالضياع والحوادث والمصائب .

فأطْعِمْ وكُلْ من عـارةٍ مُستردَّةٍ ،
ولا تُبْقِها ؛ إن العواريَ للـردّ (١) .

وتظهَرُ الخصائصُ المُحدَثَةُ على مدح بشارٍ لِعُمَرَ بنِ العَلاء ظهوراً بارزاً . كان أبو عمرو (غ ٣ : ١٥٠) عُمَرُ بنُ العلاء جزاراً من أهل الريّ فجَمَعَ (في أيام المنصور) جمعاً وقاتل الديْلَم فأبْلى بلاءً حَسناً . وقد استُشْهِدَ في أيام المَهديّ (معجم البلدان ٣ : ٥٠٦) . ومعَ أنه كان جزّاراً فقد « كان مُمَدَّحاً » (العمدة ٢ : ١٧٥) . ولبشارٍ في عُمَرَ بن العلاء قصيدةٌ يبدأها بالغزل ويُنْهيها بالفخر . أما المدح ففي أوْسَطِها :

أقـولُ لهـا حـينَ قـلَّ الـثراء ... ومات المُرادُ وأوْدى النَّعَمْ (٢) :
« إذا ما افتقرتِ فأحْيِـي السُّرى ... إلى ابنِ العلاءِ طبيبِ العَدَمْ (٣) » .
دعـاني إلى عمـرٍ جـودُهُ ... وقولُ العشيرةِ : بحرٌ خِضَمّ (٤) !
ولـولا الـذي ذكَروا لم أكُـنْ ... لأمدحَ رَيْحانـةً قبـلَ شمّ (٥) .
يَلَذّ العطـاءَ وسفـكَ الدمـاء ... ويغـدو على نِعَـمٍ أو نِقَـم .
ألا أيّهـا الطـالبُ المبتغـي ... نجومَ السماء بسَعْيٍ أمَـم (٦) ،
سمعتَ بمَكْرُمَةِ ابـنِ العَـلاء ... فأنشأتَ تطلُبها ؛ لَسْتَ ثَمّ (٧) !
إذا عَـرَضَ الهـمُّ في صـدرهِ ... لهَا بالعطـاء وضرب البُهَم (٨) .

---

(١) المال عارية (حاجة مستعارة) لا بد من ردها يوماً ... فكل منها واطعم غيرك منها أيضاً ما دامت معك (كن كريماً قبل أن يذهب مالك أو يرثه الوارثون) .
(٢) المراد : الموضع الذي فيه عشب . أودى : هلك . النعم : الماشية من غنم وبقر الخ . مات المراد : يبس العشب .
(٣) أحيي السرى : اذهبي ليلا . طبيب العدم : الذي يشفي من الفقر .
(٤) خضم : واسع . ذهبت إلى عمر لأنني سمعت قومه يصفونه بالكرم .
(٥) ولولا ذلك لما كنت مدحته قبل أن يعطيني .
(٦) أمم : قليل .
(٧) لست ثم : لست أهلا لذلك ، لا تستطيع ذلك .
(٨) لها : من اللهو . البهم جمع بهمة : الجيش .

فقُـــلْ للخليفــةِ إن جئتَــه ، نصيحاً ؛ ولا خيرَ في المُتّهَم :
« إذا أيقَظَتْكَ حُروبُ العِـدى فنبِّــهْ لهــا عُمَراً ثُــمَّ نم » .
فَتًى لا ينــامُ عــلى دمنـــةٍ ولا يشربُ الخمرَ إلاَّ بِدَم [1] .
إذا قــال تــمَّ عــلى قولــهِ ، ومات العناءُ بِلا أوْ نعم [2] .

ولبشّارٍ مدائحُ أقلُّ قيمةً ورُتبة من هذه التي ذكرناها لم نذكُرْها . ويبدو لك جلياً هنا أنَّ بشاراً لا يعُدُّ عطاء الممدوحِ مِنّةً بل يعدُّه بدَلاً من المدح ، وكثيراً ما رأى شِعرَه أعلى قيمةً من عطاء الممدوح . وهذه ناحيةٌ عباسية لم نَعْرِفْها في العصر الأموي ، أو أنها لم تشتَهِرْ في ذلك الحين .

٣ ــ الرثاء :

وإذا كان بشّار لا يمدح إلاّ للتكسُّب ، وكانتْ مدائحه قليلةً ، فأخلق بأنْ تكونَ مراثيه أقلَّ من ذلك . ويمكن أن نَقْسِمَ هذه المراثيَ القليلةَ ثلاثةَ أقسام : رثاءَ أهلهِ (ابنهِ وابنتهِ) ، ورثاءَ إخوانه ، ورثاءَ نَفرٍ من الذين كان يُعجَب بهم .

أمّا مرثاةُ ابنهِ ففيها عاطفةٌ قوية تذكّرنا بمرثاةِ جريرٍ لابنه ، كما أنّ كثيراً من معانيها وآرائها سيأخُذُها ابنُ الرومي لرثاء ابنهِ الأوسط . وقد شاء الاتّفاق أن يكونَ اسمُ وَلَدَيْ بَشارٍ وابنِ الرومي محمّداً . ومرثيَةُ بَشار مزيجٌ منَ الأسلوب القديم والأسلوب المولّد ومظهرٌ لعاطفةِ الأبِ المفجوع أكثرَ منها رثاءٌ للميْتِ (كما نرى عندَ جريرٍ وابْنِ الروميّ أيضا) .

---

(١) دمنة : ثأر . لا ينام على دمنة : لا ينام قبل أن يأخذ بثأره . ولا يشرب الخمر إلا بدم : لا تلذ له الحياة إلا إذا قاتل أعداءه .

(٢) إذا قال شيئاً نفذه كاملا تاماً . وهو يقول جازماً : لا أو نعم وينفذ ما يقول .

وفي هذه المرثيةِ شيءٌ من التأمل والنِقمة على القدَر (غ ٣ : ١٦١ – ١٦٢ ، الخالديان ٧١) :

أجارتَنا ، لا تَجزعي وأنيبي ؛
أتاني من الموتِ المُطِلِّ نصيبي[١] .
بُنَيَّ ، على رُغمي وسُخطي ، رُزِئْتُه
وبُدِّلَ أحجاراً وجالَ قَليبِ[٢] .
وكان كريحانِ الغصونِ تَخالُه
ذَوَى بعدَ إشراقٍ ، يَسُرّ ، وطيب .
أصيبَ بُنَيَّ حينَ أورقَ غُصنُه ؛
وألقى عليَّ الهمَّ كلُّ قريب[٣] .
عَجِبْتُ لإسراعِ المَنيّةِ نحوَه ،
وما كان لو مُلّيتُه[٤] بعجيب .
دَعَتْه المنايا فاستجابَ لصوتِها ،
فللّهِ من داعٍ دعا ومُجيب .
إذا شئتُ راعَتْني – مُقيماً وظاعناً –
مَصارِعُ شُبّانٍ لَدَيَّ وشيب[٥] !
نُؤمِّلُ عيشاً في حياةٍ ذميمة
أضرَّتْ بأبدانٍ لنا وقلوب .

وماتت لبشّار بنتٌ صغيرةٌ فرثاها رثاءً فيه شيءٌ من قِلة الجِدّ (غ ٣ : ٢٢٩ – ٢٣٠) .

---

(١) الجارة : الزوجة . أناب : رجع إلى الله ، سلم أمره لله .
(٢) جال : جانب . قليب : بئر – أي حفرة .
(٣) ألقى علي الهم كل قريب : كل قريب لي نعي موت ابني ، وبقيت أنا وحدي أذكره .
(٤) تمتعت به طويلا .
(٥) الظاعن : المسافر – أرى الناس حولي يموتون شيوخاً وشباناً . ليس للموت سن معينة .

وأما رثاءُ إخوانِه فنعْرِفُ منه مرثيتَيْنِ عليهما طابعٌ مولّد ، وفي كُلٍّ واحدةٍ منهما وصفٌ للخمر وتأسٍّ ، وفيهما كِلَيْهِما نسيبٌ . وله مرثيةٌ ثالثةٌ فيها فخر . ولقد كان بَشارٌ صادقَ الرثاء بيِّنَ الإخلاص في هذا النوعِ ، بالغَ السهولة قويَّ التأثير .

كانَ لبشارٍ في البصرة خمسةُ أصدقاء فمات منهم أربعة وبَقِيَ واحدٌ يُقال له البَرّاءُ ، فَرَكِبَ في زورقٍ يُريدُ عبورَ دِجلة العوراء فغَرِقَ ... فرثى بَشارٌ أصدقاءه الخمسةَ معاً فقال (غ ٣ : ٢٣٤ — ٢٣٦) :

كان لي صاحبٌ فأوْدى بــه الدهـ ـرُ [١] وفارَقْتُه ، عليهِ السلامُ .
بَقِيَ الناسُ بَعدَ هَلْكِ نداما يَ وقوعاً لم يشعرُوا ما الكلامُ [٢]
كجُزُورِ الأيسارِ [٣] لا كَبِــدٌ فيـ ـهــا لباغٍ ولا عليهــا سنام .
يا ابنَ موسى ، فَقْدُ الحبيبِ على العيـ ـنِ قَذاةٌ وفي الفؤادِ سَقام .
كيف يصفو لِيَ النعيمُ وحيداً ، والأخلاّءُ في المقابرِ هـام [٤] ؟
نَفِسَتْهم عليَّ أمُّ المنايـــا فأنامَتْهُــمُ بعُنفٍ فناموا [٥] .
لا يغيضُ انسجامُ دمعي عليهِم ؛ إنّما غاية الحزينِ السِّجام [٦] .

وهنالك مرثيةٌ أخرى لبشّارٍ قالها في العصر العباسي ، ولكنها مطبوعةٌ بالأسلوب القديم . كان أبو جعفرٍ عُمَرُ بنُ حفصِ بنِ عثمانَ بن قَبيصةَ ابنِ أبي صُفرةَ العَتَكيّ قائداً شجاعاً فكان يلقب بهزارِ مرْد [٧] ، قاتلَ

(١) أهلكه الدهر : مات .
(٢) الهلك : الهلاك . وقوعاً : ساهمين ، حائرين ، مشدوهين .
(٣) الإبل التي تنحر عند لعب الميسر ...
(٤) الأخلاء جمع خليل : الصديق . هام : رأس ، معناها هنا ميت .
(٥) حسدني الموت على أصدقائي فجعل يأخذهم واحداً واحداً .
(٦) غاض : جف . سجام : سيلان — ان أكثر ما يستطيع الحزين فعله أن يبكي .
(٧) هزار مرد : ألف رجل (والمقصود « بمقام ألف رجل ، بطل ») .

الخوارج بالقَيْروان عام ١٥٣ هـ فقُتل (الطبري ٣ : ٣٧٠) . وقد كان مُحسناً إلى بشارٍ فرثاه بشارٌ (البيان والتبيين ١ : ٢٣٨ و ٢ : ٢٥١) :

ما بالُ عينِكَ دمعُها مسكوبُ ... سهِرَت ، فأنتَ بنَوْمها محروبُ[1] .
وكذاكَ من صَحِبَ الحوادثَ لم يزَلْ ... تأتي عليه سَلامة ونُكوب .
إن الرزيّةَ لا رزيةَ مثلُها ... يومَ ابنُ حفْصٍ في الدِماء خضيب
لا يستجيبُ ولا يَحيرُ لِسانُه ، ... ولقد يَحيرُ لسانُه ويُجيب[2] !
يا أرضُ ، ويحكِ أكرميهِ فإنّه ... لم يَبْقَ للعتَكيِّ فيك ضريب[3] .
أبْهى على خَشَبِ المنابر قائماً ... يوماً ، وأحزَمَ إذْ تُشَبُّ حروب.
غُلِبَ العزاءُ على ابنِ حفصٍ والأسى ، ... إنَّ العزاءَ بِمثلِه مغلوب
إذ قيل أصبحَ في المقابرِ ثاوياً ... عُمَرٌ وشُقّ لِواؤه المنصوب .
فظَلِلْتُ أنْدُبُ سيفَ آلِ محمد ... عُمَراً . وعزَّ هُنالك المَنْدوب !
فعليك ، يا عُمَرُ ، السلامُ فإننا ... باكوكَ ما هبّت صَباً وجَنوب.

ولعلَّ أعظمَ ما جعل عاطفةَ بشارٍ في بعضِ رثائه قويةً ثائرةً أنه كان قدِ اكتفى من الناس كُلِّهم بنفرٍ قليلين من الأصدقاء الخُلّص فسطا عليهِمُ الموت .

٤ ـ الاعتذار والعتاب والوعيد :

إذا كانت غاية الشاعر الأساسية من مديحه التكسُّبَ فأخلق به ألاّ يهجُوَ إلا بعدَ أن يستنفدَ جميعَ الوسائلِ في استدرارِ كفِّ الممدوح. ولقد فعلَ بشارٌ ذلك كلّه ، وتفنّن فيه .

فمن أجمل وُجوه الاعتذارِ عن الممدوحِ في قِلّةِ مقدرتهِ على إعطاء

---

(١) مصاب بنومها ، أي محروم من النوم .
(٢) يحير : يرجع ، يرد جواباً. (٣) ضريب : شبيه .

الكثيرِ قولُ بشارٍ حينما استَمْنَحَ العباسَ بنَ محمدِ بنِ علي بن عبدِ اللهِ ابنِ العباسِ فلم يمنحه ؛ فوصف له البخيلَ والكريمَ وبسط له شيئاً من فلسفة العطاء . ولكنّه في الحقيقةِ هجاه (غ ٣ : ١٩٥) :

ظِلُّ اليَسارِ على العبّاس مَمدودُ ، وقَلبُــه أبداً بالبُخْــلِ مَعقود .
إنّ الكريم لَيُخفي عنــك عُسْرتَه حتى تراه غَنيّاً وهو مَجْهود [1]
وللبخيــلِ عــلى أموالــهِ عِلَلٌ زُرْقُ العيونِ عليها أوجهٌ سود .
إذا تكرّهتَ أنْ تُعطِي القليلَ ، ولم تَقْدِرْ على سَعَةٍ لم يَظْهرِ الجود .
أوْرِقْ بخيرٍ تُرجَى [2] للنوالِ ، فما تُرجى الثّمارُ إذا لم يُورِقِ العود .
بُثَّ النوالَ ولا تَمْنَعْكَ قِلّتُه ؛ فكُلُّ ما سدَّ فقراً فهو محمودُ !

ولما وَردَ بشارٌ على خالدِ بنِ برمكَ بفارسَ ومدحه ، وعَده خالدٌ ولكن مَطَلَهُ . فقال بشارٌ يعاتبه (غ ٣ : ١٨٥ ، الخالديان ٦٦) :

أطلّتْ علينا منــكَ يومــاً سحابةٌ أضاءتْ لنا برقاً وأبْطا رشَاشها .
فلا غيمُها يُجلى فييأسَ طامِــعٌ ، ولا غيثُها يأتي فيُروى عِطاشها .

وكذلك مدحَ بشارٌ يعقوبَ بنَ داوودَ وزيرَ المَهديِّ فلم يُعْطهِ يعقوبُ شيئاً ، فبالغ في عتابهِ وتجاوَزَ الحدَّ إلى الازدراء به والاحتقار له (غ ٣ : ٢٤٥ — ٢٤٦ الخالديان ١١٠) .

طــال الثّواءُ على تَنَظُّــرِ حاجةٍ شمِطتْ لديكَ ، فمن لها بخضابِ !
تُعْطي الغَزيرَةُ دَرَّها [3] ، فاذا أبَتْ
كــانت مَلامتُهــا عــلى الحَلاّب .

---

(١) متعب (بالفقر) ، منهوك .
(٢) كذا بالأصل ، والصواب : ترج .
(٣) الغزيرة : الكثيرة اللبن ، الدر : اللبن .

يعقوبُ ، قد وَرَدَ العُفـاةُ عَشيّـةً
مُتَعَرِّضينَ لسَيْبِكَ المُنْتـاب[1] ،
فَسَقَيْتَهُـمْ وحَسِبْتَـني كَمُّونَةً
نَبَتَتْ لزارعهـا بغـيرِ شَرَاب .
مَهْ ، لا أبا لَكَ ! إنني ريحانـةٌ
فاشمَمْ جَناهـا واسْقِـني بذِناب[2] .

وربما هدّد بَشارٌ الممدوحَ بالهجاء إذا تأخرتْ عنه الصلة . لما مدح بشارٌ عُقبةَ بنَ سَلْم بأرجوزته « يا طللَ الحيِّ بذات الصمْدِ » أمرَ له عُقبة بخمسين ألفَ درهمٍ . ولكنّ وكيلَ عقبةَ أخّر الصلة ثلاثةَ أيامٍ ، فقال فيه بشارٌ (غ ٣ : ١٨٢ ، العقد ١ : ٩٢) :

ما زال مـا منّيْتَـني من همّي ، والوَعدُ غَمٌّ ، فأزِلْ من غمي .
إن لم تُرِد حمدي فراقِبْ ذَمّي !

وربما كان بشار أحياناً أعجزَ من أن ينال خصمه بشرّ . ولكنّ ذلك لم يمنعْه من أن يهدّده ويتوعّده كما فعل لما مدَحَ إبراهيمَ بنَ عبدِ الله بنِ الحسن ، فإنه هدّد أبا جعفرٍ المنصورَ تهديداً شديداً (غ ٣ : ١٥٦ – ١٥٧) :

أبا جعفرٍ ، مـا طولُ عيشٍ بدائـمِ
ولا سالمٌ عمـا قليـلٍ بسالـمِ .
على المَلِـكِ الجبّارِ يقتحمُ الـرَّدى
ويَصرعُـهُ في المـأزِق المتلاحـم .
كأنّـك لم تَسْمَعْ بقتـلِ مُتَـوَّجٍ
عظـيمٍ ولم تسمعْ بفَتْكِ الأعاجم :

---

(١) السيب : العطاء ، المنتاب : الذي يأتي مرة بعد مرة .
(٢) دلو عظيمة .

تَقَسَّمَ كِسرى رهطُه بسيوفِهم ،
وأمسى أبو العباس [1] أحلامَ نائمِ .
وقد تَرِدُ الأيامُ غُرّاً ، ورُبَّما
وَرَدْنَ كُلوحاً باديات الشكائم .
ومَروانُ قد دارت على رأسهِ الرَّحى
وكان ، لما أجْرَمْتَ ، نَزْرَ الجرائم [2] !

ويرى بشارٌ أيضاً أنّ الممدوح مُجبَر على إعطائه قدْراً من المال ، وأن ذَهابه إلى الممدوح ووُجودَ المالِ لدى الممدوح مما يُوجِبُ له نصيباً في ذلك المال من طريق المدح او من طريق الهجاء ، كما قال في خالد بن برمك (غ ٣ : ٢٠٢ – ٢٠٣) :

أخالدُ ، لم أخبِطْ إليك بذِمّة
سوى أنني عافٍ وأنتَ جوادُ [3] .
أخالدُ ، إنّ الأجرَ والحمدَ حاجتي ؛
فأيّهما تأتي فأنت عِمادُ .
فإنْ تُعْطِني أفرِغْ عليك مدائحي ؛
وإن تأبَ لم يُضرَبْ عليَّ سِداد [4]

---

(١) الوليد بن يزيد الأموي .
(٢) مروان بن محمد ، آخر الخلفاء الأمويين . لما أجرمت : بالنسبة إلى جرائمك ، إذا قيست جرائمه بجرائمك.
(٣) خبط : سار . ذمة : عهد . عاف : فقير – ليس لي حجة في السير اليك الا أني أنا فقير وأنت كريم .
(٤) لم يضرب علي سداد : لا تسد الدنيا في وجهي – إذا لم تعطني تركتك وذهبت إلى غيرك (وهجوتك) .

٥ ـ الهجاءُ :

الهجاء ميزة بَشارٍ [١] . ولا شك في أنّ الهجاء كانَ من أولِ الأغراض التي مال إليها شاعرنا (راجع غ ٣ : ٢٠٨ الخ) ، فقد قال بَشار الشعرَ وهُوَ صغير ، فما بلَغ الحُلُم إلاّ وهُوَ مَخْشِيٌّ مَعَرّةِ اللسان (غ ٣ : ١٤٤ ، راجع ١٤٩) . من أجل ذلك لا نستغرب أن يكون بابُ الهجاء اوسعَ الأبواب في شعر بَشارٍ على ما وصل إلينا . وقد لاحظ قوْم شِدّة مَيْل بشار إلى الهجاء واتساع قوله فيه فقالوا له (غ ٣ : ٢٠٧) : « إنّك لَكثيرُ الهجاء ! فقال : إنيّ وجدتُّ الهجاءَ المؤلم آخَذَ بضبِعْ [٢] الشاعر من المديح الرائع . ومَنْ أراد من الشعراء أن يُكرمَ في دهر اللئام على المديح فليستعدّ للفقر ، وإلاّ فليبالغْ في الهجاءِ ليُخافَ فيُعطى » .

وبما أنّ بشاراً عاش في العصر الأموي ردْحاً طويلاً فقد كان من المعقول أنْ يدخُلَ في ما دخَلَ فيه شعراءُ المُناقضات ، فهجا جريرَ بنَ عَطيّةَ الخطَفَى في الأغلبِ ، وهجا جريرَ بنَ المنذر السُّدوسي على التحقيق . وله هجاءٌ في بَني ضُبَيْعَة يقول فيه (البيان والتبيين ٢ : ١٥٠) :

وفي العبرَاتِ الغُرّ صــبرٌ على النوى ،
أولئكَ حَيٌّ من حَزِيمــة أغْلَبُ [٣] .
والأم من يمشي ضُبَيْعَــةُ ، إنهــم
زَعانفُ لم يَخْطُبْ إليهم مُحَجّبُ [٤] !

---

(١) GAL I 109

(٢) آخذ بضبع الشاعر : أكثر عوناً له .

(٣) العبرات : (بضم العين أو كسرها) : قبيلة . أغلب : غالب شجاع .

(٤) الزعانف : أجنحة السمك ، أراذل القوم ، القبيلة القليلة العدد . محجب : ملك ، رجل كريم – لا يتزوج . رجل كريم بناتهم .

ولقد هجا بشارٌ أيضاً نفراً منهم حمّادُ عجردٍ ورجلاً اسمُه أبو زيدٍ وغيرَهما كثيرين . ولكنه كان كلّما تعرّض بالهجاء لشاعرٍ كبير أو صغير ، مشهورٍ أو مغمور ، رجَع عنه نادماً مهزوماً . ولقد لاحظ ذلك ابن رشيق (العمدة ١ : ٨٩) فقال : « ومِنْ مُغَلّبي المولّدين (في الهجاء) ، على جلالته وتقدّمه ، بَشارُ بنُ بردٍ فإنّ حمادَ عجردٍ — وليس من رِجاله ولا من أكْفائه — هجاه فأبكاه ومثّل به أشدَّ تمثيلٍ » . وغَضِبَ بَشارٌ من هجاء حمادٍ له ، ولكن الجاحظ (راجع العمدة ١ : ٩١) يلومَ بَشّاراً فيقول : ما كانَ ينبغي لبشارٍ أنْ يُضادّ حمادَ عجردٍ من جهةِ الشعر لأنّ حماداً في الحضيض وبَشاراً في العَيُّوق [1] » .

وكذلك هجا بشّاراً أبو هشام الباهليّ ببيتين لم يزل بَشار منذ سمعهما منكسراً (غ ٣ : ١٤١) مَع أنّ بشاراً كان قد هجاه [2] . وهجا بَشارٌ جاراً له يقال له أبو زيد ، ولم يكن ممن يقول الشعر . فرد عليه أبو زيد بثلاثة أبيات . « فلما قرئت على بَشار غضب وندم على تعرُّضه لرجلٍ لا نباهةَ له ؛ وجعل ينطح الحائط برأسه غيظاً . ثم قال : لا تعرَّضتُ لهجاءِ سَفَلَةٍ مثلِ هذا أبداً (غ ٣ : ١٨٨) » .

من أجلِ ذلك كان بشار شديدَ الخوف من أن يهجُوَهُ أحدٌ ، وكان يدفع لأبي الشَمَقْمقِ الشاعرِ مائتَيْ دِرهمٍ في كل عامٍ « جِزية » حتى يُعْفِيَهُ من هِجائه (٣ : ١٩٤ — ١٩٥) .

أما الذين صبّ عليهم بشارٌ سَوْطَ هجائه فكانوا من الذين لا يقولون الشعر ، فكانتْ من أجلِ ذلك مقاتِلُهم باديةً له ، وكانَ هو في مأمنٍ منهم . وقد كان هؤلاء الذين هجاهم بَشارٌ إما ممدوحين لم يُعْطوه أو أنّهم أعْطَوْه أقلَّ مما كان ينتظر منهم ؛ وإما أنهم كانوا عُلماءَ ونُحاةً يتركون الاستشهادَ

---

(١) العيوق : نجم .
(٢) أخبار أبي تمام للصولي ٤٨ .

بشعره ؛ وإما أنهم كانوا نفراً ثِقالاً غِلاظاً سمُجوا في عينِ الشاعر فاقتص منهم بهجائه إيّاهم .

وهجاء بَشار نوعان : نوع فَنّي هو المقصودُ بدراستنا هنا ، وهو يقوم على الإمضاض والإيلام ، إذ بناه الشاعرُ في أكثرِ الأحيان على التعريض بالمهجُوّ أو على احتقاره ونزع الصفات الكريمة عنه وذِكْرِ النِكات الباعثة على الهزؤ به ، وقد يذكر بشارٌ العيوبَ الجسدية . وهذا النوع من الهجاء عند بَشار من شعره الجِدّي . وكثيراً ما تراه محبوكاً بتَضمينِ آيٍ مِنَ القرآنِ الكريم على طريقِ التمثيل أو معقوداً بمثَلٍ سائرٍ أو معلّقاً بحكمة . وبَشارٌ يعتمدُ في هجائه التصويرَ الباعثَ على السُخرية وعلى المبالغة واختلاق المعايبِ مما هو سبيلُ الشعراء المولّدين .

(أ) الهجاء القبلي :

ويحسُنُ بنا أن نبدأ بهجاء بَشارٍ القَبلي معَ قِلّته عند بَشار وقِلة جَدْواه . فمن هذا الهجاء ما هو شتائمُ مَحْضٌ (الحيوان ١ : ١٢١ ، غ ٣ ، ٢١٠ ، البيان والتبيين ٢ : ١٥٠) :

* عددتَ سُوَيداً إذ فَخَرتَ وتَوْلَباً ؛ ولَلْكلبُ خيرٌ من سويد وتولَب .
* كأنّ بني سَدوسٍ رهطَ ثورٍ خنافسُ عند منكسر الجدار .
تُحرِّكَ للفَخار زُنابيَيْها ، وفخرُ الخُنفساء من الصّغار [١] .
* وألأم من يمشي ضُبيعة ، إنهم زعانفُ لم يَخْطُب إليهم محجّب .

وبَشار يهزأ بالأنساب العربية ، وخصوصاً تلك التي يُلَفّقها أصحابُها لأنفسهم . وهو يُشبّه تلك الأنسابَ بالقوارير (الزجاج) لأنها سريعة التحطّم

(١) الزنابيان : الإبرة المزدوجة التي تضرب بها العقرب .

إذا اصطدمتْ بشيء . وربما شبّهها بقوارير الحجام إشارة إلى قذارتها ، وذلك لأن الحجّام يستخرج بقواريره دمَ المرضى . من ذلك هجاؤه لِخَلَفِ ابنِ أبي عمرِو بنِ العلاء (غ ٣ : ١٩٠) :

ارفِقْ بعمرٍو إذا حرّكتَ نِسبتَـهُ ... فإنّه عربيٌّ من قواريرِ [1] .
ما زال في كِيرِ حدادٍ يردّدهُ ... حتّى بدا عربياً مُظْلِمَ النور .
إن جاز آباؤه الأنذالُ في مُضَرٍ ... جازت فلوسُ بُخارى في الدنانير [2] .

وقال في بني زيد (غ ٣ : ٢٠٥) :

فقُلْ في بني زيدٍ كما قال مُعْرِبٌ : ... « قواريرُ حجّامٍ غداً تتكسّرُ » ‌ه

ثمّ إن لبشارٍ هجْواً قَبَليّاً جدّياً يبحث فيه عن مثالبِ العرب والبَدْو ويدافع عن الموالي عموماً وعن بني الاحرار (الفرس) خصوصاً . ولكنّه يقوله بين الفيْنة والفينة إذا تحدّاه أحدٌ أوِ احتقره لأنّه مَوْلىً (غ ٣ : ١٦٦ – ١٦٧) :

خليلي ، لا أنام على اقتسارٍ ... ولا آبَى على مَوْلىً وجارِ .
سأخبرُ فاخرَ الأعراب [3] عني ... وعنه ، حينَ تأذَنُ بالفَخار .
أحين كُسيتَ بعد العُرْيِ خزّاً ... ونادمتَ الكِرام على العُقار [4] ،
تفاخر ، يا ابنَ راعيةٍ وراعٍ ، ... بني الأحرارِ [5] ؟ حسبُكَ من خَسار !

---

(١) قوارير : زجاج .
(٢) ان كان آباؤه يقبلون في العرب فحينئذ يمكن أن يقبل الفلس البخاري (قطعة صغيرة ورديئة من العملة) مكان الدينار .
(٣) المفتخر من البدو .
(٤) العقار : الخمر .
(٥) الاحرار : الفرس .

وكنتَ إذا ظمئتَ إلى قَراحٍ شرِكْتَ الكلبَ في وَلْغ الإطارِ [1] .
تُريغ [2] بخُطبةٍ كسرَ الموالي ، ويُنسيك المكارمَ صيدُ فار .
وتغدو للقنافذِ تدَّريها ، ولم تَعقِل بدرّاجِ الديار [3] .
وتنتسجُ الشِمَالَ لِلابسيها وترعى الضأن بالبلد القِفار [4] .
مُقامُك بيْنَنَا دَنَسٌ علينا ؛ فَلَيْتَكَ غائبٌ في حَرِّ نارِ !
وفخرُك بين خِنزيرٍ وكلب ، على مثلي ، من الحدَثِ [5] الكبار !

ويظهر أن بشاراً غضب يوماً من واسطيّ فهجا واسطَ وأهلَ واسطَ (معجم البلدان ٤ : ٨٨٧) :

على واسطٍ من ربّها ألف لعنةٍ وتِسعةُ آلافٍ على أهلِ واسطِ .
أيُلتَمَسُ المعروفُ من أهلِ واسط ، وواسطُ مأوى كلّ عِلجٍ [6] وساقط .
نبيطٌ وأعلاجٌ وخُوزٌ تجمّعوا ، شِرارُ عبادِ الله من كل خابط [7] .
وإنّي لأرجو أن أنالَ بشتْمِهِم من الله أجراً مثلَ أجرِ المُرابط [8] .

(ب) الهجاء الشخصي :

وفي الهجاء الشخصي تظهر مقدرةُ بشار ، سواءٌ في ذلك ما قالَه

---

(١) القراح : الصافي . ولغ الاطار الماء في الخندق الذي يكون حول الخيمة .
(٢) تطلب ، تبتغي .
(٣) تدريها : (تصيدها) ، ولم تعقل بدراج الديار : (لا تستطيع صيد الحجل) .
(٤) الشمال جمع شملة ، ثوب يلف على البدن من ثياب البدو . والضأن : الغنم . القفار الخالية.
(٥) الحدث : الحوادث ، المصائب .
(٦) علج : الرجل الفظ الكبير الجسم وخصوصاً من غير العرب .
(٧) النبيط : فلاحو السواد (العراق الأدنى) . الاعلاج : جمع علج . خوزستان مقاطعة في جنوبي غربي فارس . الخابط : التائه في الأرض ، الشريد .
(٨) المرابط : المتطوع الذي يدافع عن حدود البلاد الإسلامية .

في العصر الأمويّ وفي العصر العباسي. ولا يكتفي بَشار بالتعريض بالمهجُوّ فقط ، بل تراه يصوّره ويحلّلُ نفسيّتَه ليَحْمِلَ الناسَ أيضاً على الهزؤ به . فهو يقول مثلاً (ديوان المعاني ١ : ٢٠٣ والنويري ٣ : ٣٢٠) :

وضيفُ عمرٍو وعمرٌو يسهرانِ معاً :
عمرٌو لبِطنتِـه والضيفُ للجـوع .

وتولّى صالحُ بنُ داوودَ البصرةَ سنة ١٦٣ (الطبري ٣ : ٥٠١) فلم يُعْطِ بَشاراً شيئاً ، وكان بَشارٌ قد مدح أخاه يعقوبَ وهو يومذاك وزيرُ الخليفة المَهديّ أوِ المُستبدُّ بأمورِه على الأقلّ ، فلم يُعْطِه شيئاً أيضاً . فقال بشّار يُخاطب يعقوبَ ويهجو صالحاً (غ ٣ : ٢٤٤) :

همُ حمـلوا فوقَ المنابـرِ صالحاً أخاك ، فضجّتْ من أخيك المنابرُ .

ولم يُثْمِرْ هذا الهجاءُ شيئاً فخاطب بشّارٌ بني أميّة يَستحِثُّهم على النهوض لاستردادِ الخِلافة ما دام المَهديُّ ووزيرُه غافلَين عن ضبْط الأمور (غ : ٢٤٣ والخالديان ١١٤) .

بني أمَيّةَ ، هُبُّوا طال نومُكُمـو ؛
إنّ الخليفـةَ يعقوبُ بن داوودِ ،
ضاعتْ خِلافتُكمْ ، يا قومُ ، فالتمِسوا
خليفةَ الله بـينَ الـزِّقّ [1] والعود .

ومن هجاء بشارٍ الذي يصوِّر المهجُوَّ متعرّضاً لعاهاته الجسدية ، معَ التعريض المُرّ ، هجاؤه لواصلِ بنِ عطاءٍ (غ ٣ : ١٤٥) :

مـا لي أُشايعُ غزّالاً لـه عنُـقٌ كنِقْنِقِ الدَّوِّ إنْ ولّى وإنْ مَثَلا؟

---

(١) وعاء للخمر .

عنقُ الزُّرافة ، ما بالي وبالُكُمُ   تكفِّرون رجالاً كفَّروا رجُلا !

ومن التصوير والتحليل البارعين في الهجاء قولُ بشّار في رجلٍ اسمه هِلال الرائي — وهو هلال بن عَطيّة — وكان صديقاً لبشّار يمازحه كثيراً فقال له يوماً: « ان الله لم يُذهبْ بَصَرَ أحدٍ إلاّ عوّضه بشيء، فما عوضك؟ » فقال بشّار : « الطويلُ العريض ! » قال هِلال : « وما هذا ؟ » قال بشّار : « ألاّ أراك وأمثالَك من الثقلاء » . وكان هِلال هذا ثقيلاً فقال بشّار يهجوه (غ ٣ : ١٦٨) :

وكيف يَخِفّ لي بَصري وسَمْعي ، وحولي عسْكرانِ مِنَ الثِقالِ ؟
قُعوداً حولَ دَسْكرتي وعِندي كأنّ لهم عليّ فُضولَ مالِ .
إذا ما شئتُ صبّحني هِلالٌ . وأيُّ الناس أثقلُ من هِلال !

ومن التعريض المرير بالثُقلاء هجاءُ بَشارٍ لأبي سفيان بنِ العلاء بن لَبيدٍ التَغلَبيّ ، وكان على شُرطة البصرة . وقد كان يُحبّ مجالسةَ بَشار ، ولكنّ بَشاراً كان يَستَثْقِلُه (غ ٣ : ١٨٧ والنويري ٣ : ٢٩٢) :

ولقد قُلْتُ حينَ وُتِّدَ في الأرضِ ثقيلٌ أرْبى على ثَهلانِ :
رُبّما يَثْقُلُ الجليسُ ، وإن كانَ خفيفاً في كِفّةِ الميزان !
كيف لا تَحْمِلُ الأمانةَ أرضٌ حَمَلَتْ فوقَها أبا سُفيان ؟

فبعدَ أن ذكر بشارٌ أن هذا المهجُو أثقلُ من جبلِ ثَهلانَ ، وأنه وُتِّدَ (أثبت) في الأرض كسائر الجبال التي جُعلت للأرض رواسِيَ حتى لا تميلَ وتضطرب ، كما قال الله تعالى في سورة الأنبياء (٢١ : ٣١) « وجعلنا في الأرض رواسيَ أن تميدَ بهم » ، رأى أنّ الإنسان قد يكونُ خفيفَ الوزن ،

ثم يكونُ معَ ذلك ثقيلا . ثم يعجَبُ بَشار مرةً أخرى كيف أن الأرض التي نعيش عليها قد رَفَضَتْ أن تحملَ « الأمانة » – وهي التبعة العاقلة التي يترتّب على ما يأتي به حاملها من الأعمال ثواباً أو عقاباً يوم القيامة – حينما عَرَضَها اللهُ عليها في بدء الخليقة ، على ما جاء في سورة الأحزاب (٣٣ : ٧٢) : « إنا عَرَضْنا الأمانة على السموات والأرض والجبالِ فأبَيْنَ أن يَحْمِلْنَها وأشْفقنَ منها ، وحملَها الإنسان ، إنه كان ظلوماً جهولاً » . ومَع ذلك فهذه الأرض قد قَبِلَتْ أنْ تحملَ أبا سفيان !

ومن التحليلِ البارع لنفسِ البخيل والتعريض المُمِضّ بهِ مَع وصفِ حركاتِه وأحواله هجاءُ بَشارٍ لعُبيدِ الله بن قَزْعة ، ويظهر أنه كان في صدر الدولة العباسية (راجع الكامل ٢٢٤) . هذه الأبيات من أبرع ما ورَد في الهجاء المُحدَث . قال بشار (مختارات البارودي ٤ : ٤٠١ – ٤٠٢) :

خليليَّ من كعبٍ ، أعينا أخاكما ... على دهره ؛ إنّ الكريمَ مُعينُ .
ولا تبخَلا بُخلَ ابنِ قَزعةَ إنّه ، ... مخافةَ أن يُرجى نَداه ، حزين .
كأنّ عبيدَ اللهِ لم يَلْقَ ماجداً ، ... ولم يدْرِ أنّ المكرُماتِ تكون !
إذا جِئْتَه في حاجةٍ سَدّ بابَه ... فلم تَلْقَهُ إلاّ وأنتَ كمين .

* * *

ويميلُ بشّار في أكثرِ أهاجيه إلى الإقذاع . وبما أنّ أكثرَ هذا النوع من الأهاجي يتناول الأعراض ، محشُوّاً بالألفاظ البذيئة ، فقد آثرتُ الإضرابَ عن درسه والاستشهادِ بنماذجَ منه هنا .

ولكنْ مما لا بُدّ من ذِكره على كُلّ حالٍ أنّ بشاراً لجأ إلى الإقذاع عند هجاء نفرٍ من العلماء الذين انتقدوا شعره أو تركوا الاستشهاد بشعرِه ومعنى ذلك أنّهم عدّوا بَشاراً مُنْحَطّاً عن الطَبَقة التي يجوز الاستشهاد بشعرها في الاحتجاج لِصحة ألفاظ اللغة وصِحة تراكيبها . وكان من الذين

انتقدوا بَشاراً سيبَوَيْهِ صاحبُ « الكتاب » في النحو ، فقال فيه بَشار (غ ٣ : ٢١٠) :

أسِبْوَيهِ يا ابنَ الفارسيةِ ، ما الذي
تحدَّثْتَ عن شتمي وما كنت تنبِذُ [١] ؟
أظَلْتَ تُغنّي سادراً في مَساءتي ،
وأمُّك بالمِصْرين تُعطي وتأخذ [٢] ؟

أمّا « الفارسيّةُ » هذه فكانت امرأةً بالبصرة مشهورةً بالتزيّن للرجال . وكان أهلُ البصرة إذا أرادوا شتيمةَ إنسانٍ قالوا له : « يا ابنَ الفارسيّة » . غيرَ أن المرزُباني (الموشّح ٢٤٧) يقول : كان بشّارٌ « أشدَّ عصبيّةً للفُرسِ من أن يقولَ هذا » أو يَعْنيه .

٦ ــ العتاب والنسيب :

في المقدّمة القيّمة التي عَقَدَها محمّدُ الطاهرُ بنُ عاشورٍ (ديوان بشّار ... ص ٣٠) تردّدٌ بينَ أنْ يكونَ « غرام بشّار » حقيقةً أو تصنّعاً . والذي أوقعَ محمّدَ الطاهرَ بنَ عاشور في هذه الحَيْرة هو أنّه نظر إلى نسيب بشّارٍ وإلى غزل بشّار ، في العصر الأمويّ وفي العصر العبّاسيّ معاً ، نظرةً واحدةً وعالجَهما مُعالجةً واحدة . ولو أنّه فَصَل بين الفنّين (النسيبِ والغزل) وبينَ العصرين (الأموي والعبّاسي) لَمَا وجدتْ هذه الحَيْرةُ سبيلاً إلى نفسه .

كان مُعْظَم نسيبِ بشّارٍ بعَبْدةَ ــ في العصرِ الأمويّ ــ ولقد جرى نسيبُه هذا مجرى الغزلِ العُذريّ في العصر الأموي ، فكان نسيبه هذا ، على

---

(١) نبذه : هزىء به ، لقبه لقباً فيه احتقار .

(٢) سادراً : متحيراً ، لاهياً . تعطي وتأخذ كناية عن شتيمة قبيحة . المصرين : الكوفة والبصرة .

الأقلّ ، على شيء من العِفّة . أما غزَله الذي كان في العصر العبّاسي فقد جرى مجرى الغزل الصريح في العصر العبّاسي . هذا في دراسة شعر بشّار . أمّا « نفْسُ بشّار » فكانتْ أميَل إلى الفِسق منها إلى العِفّة .

يبدو لنا بوضوحٍ أن نسيبَ بَشّار كان صادقاً . إن شاعراً يَقِفُ أكثرَ نسيبه على امرأة واحدة يبثّها فيه شوقَه ويشكو فيه بُعادَها ويأتي فيه بالمَعاني الغريبة والعاطفة القوية لَشاعرٌ صادق التعبير عما يجول في نفسه مخلصٌ في حبه .

هذه المرأةُ التي وقفَ بَشارٌ عليها أكثرَ نسيبهِ تدعى عَبدةَ ، عَرَفَتْه قبل أن يُتَوَفّى الحسنُ البصريّ (ت ١١٠ هـ = ٧٢٨ م) بأمد فتعلّق بها زمناً طويلاً . ويظهر أن عبدة كانت مُتَصَوّنةً ، فكانتْ جميعُ أشعارِ بشّارٍ فيها عِتاباً وشكْوى . وكانتْ هذه الأشعارُ تمثل الأساليبَ القديمةَ والمُحدَثة مما يُدلّ على ان حبَّ عبدة تقلّب في نفسِه تقلُّبَ أسلوبه في شِعره . ولعلَّ من أوائل أشعارِ بشارٍ في عبدةَ هذه قوله : (غ ٥ : ٣٥٠ و ٦ : ٢٤٦) :

لعبدةَ دارٌ ، ما تُكَلِّمُنا الـدارُ ،   تلوح مَغانيها كمـا لاحَ أسطارُ .
أسائلُ أحجاراً ونُؤْياً [1] مُهدَّما ؛   وكيف يردُّ القولَ نُؤْيٌ وأحجار ؟
وما كلّمتني دارُهـا إذ سألتهـا ،   وفي كَبِدي كالنِفط شُبّتْ به النار .
وعند مغاني دارِها ــ لو تكلّمـتْ   لمُكْتئبٍ بادي الصَبابةِ ــ أخبارُ .

هذه الأبيات جاهليةٌ في معانيها وبِنائها تذكّرنا بقصيدة النابغة : « عوجوا فحيّوا لِنُعْمٍ دِمنةَ الدار » .

ولبشارٍ قصائدُ كِثارٌ في النسيبِ بعبدةَ تَحْمِلُ الطابعَ الأمويَّ كقوله (الخالديان ٨٢ ، ٨٩ ، ٩٠ ، غ ٣ : ٢٢٦) :

---

(١) الخندق الصغير حول الخيمة .

• فيا عجباً زيّنتُ نفسي بحُبّها ،
وزانتْ بهَجْري نفسَهـا وتَخلّتِ !
فبيني [1] كما بانَ الشبابُ الذي مضى ،
وكـانتْ يدٌ منـه عليّ فولّـت .
• ومَنّيْتِنا جوداً وأنـتِ بخيلـةٌ ،
وشتّانَ أهلُ الجـودِ والبخـلاءُ .
إذا سَفَرت [2] طابَ النعيم بوَجْهِها ،
وشُبّـهَ لي أنّ المضيـقَ فضـاءُ .
مريضةُ مـا بينَ الجوانحِ بالصِّبـا ،
وفيهـا دواءٌ للعيـون وداء .

ويظهَرُ أنّ بشاراً أشْرَكَ في حُبِّ عبدةَ امرأةً أُخرى اسمها سُعْدى (الخالديان ٣٢٢ — ٣٢٣ ، غ ٣ : ٢٢٦) — إلاّ إذا كان الاسم « سعدى » كنايةً عن عبدة نفسِها :

• متى تَعْرِفِ الدارَ التي بـانَ أهلُها
بسُعْدى فـإن الدمع منـك قريبُ ،
وتذكُرُ من تَهواه إذ أنتَ يـافِـعٌ
غُـلامٌ فمغنـاه [3] إليـك حبيب !
• فلا يَحْسَبِ البيضُ الأوانسُ أن في
فؤادي سوى سُعدى لغانيةٍ فَضْلا .
فأقْسِمَ إنْ كـان الهـوى غيرَ بالغٍ
بي القتلَ من سُعدى ، لقد جاوزَ القتلا .

---

(١) اذهبي ، ابعدي.
(٢) كشفت عن وجهها .
(٣) المغنى : المكان المسكون العامر .

ولكنّ اسمَ « سُعدى » غابَ من نسيب بَشارٍ وثَبَتَ فيه اسمُ « عبدة » . ولعلّ سُعدى مرّتْ في قلبِ بَشارٍ عرَضاً ، كما مرّ غيرها أيضاً ، قبل أن تَحِلّ عبدةُ فيه ويتحولَ نسيبُه فيها من أسلوبهِ القديم إلى أُسلوبه المُحدَث (غ ٦ : ٢٥٣ ، ٢٤٧ ، ٢٤٦ ، ٣ : ١٥١) :

* يا عبدَ يــا جافيــةً قاطعــه ، أما رَحِمتِ المُقلــةَ الدامعهْ ؟
يــا عبــدَ ، خــافي الله في عاشق يهــواكِ حتّى تقــعَ الواقعــه[١] !
* يا عبدَ ، حبُّك شَفّني شَفّا ، والحُبّ داءٌ يُــورث الحتفا[٢] .
والحبّ يُخفيــه المحِــبُّ لكيــ لا يُسترابَ بــه فــلا يخفى .
* عبدَ ، إني إليــك بالأشــواقِ لِتلاقٍ ، وكيفَ لي بالتلاقِ .
أنا ، واللهِ ، أشتهي سِحــرَ عينيــ كِ وأخْشى مَصارعَ العُشّاقِ !
* لم يَطُلْ ليلي ، ولكنْ لم أنَــمْ ونفى عني الكَرى طيفٌ ألَمّ[٣] .
نفّسي ، يــا عبدَ ، عني واعلمي أنني ، يا عبدَ ، من لحمٍ ودم .
إن في بُرديّ جِسمــاً نــاحــلاً لو توكــأتِ عليــه لانهــدَم .
وإذا قلتُ لها : « جودي لنــا » ، خرجت بالصمت عن لا ونعم[٤] .

ولما غادرت عبدةُ البصرة مع زوجها إلى عُمان قال بَشار (غ ٣ : ١٧٧) :

هَوى صاحبي ريحُ الشَمال إذا جرتْ ؛
وأشفى لنفسي أنْ تَهُــبّ جنوبُ[٥]

---

(١) الواقعة : يوم القيامة (إلى الأبد) .
(٢) شفني : انحلني ، جعلني هزيلا نحيلا . الحتف : الهلاك ، الموت.
(٣) الكرى : النوم . الطيف : المنام (الذي يأتي الانسان في أثناء نومه). ألم : مر مرا خفيفاً .
(٤) سكتت ولم تجب بشيء (لم تقل : لا ، ولم تقل : نعم).
(٥) الناس يفضلون ريح الشمال (لأن ريح الشمال في البصرة باردة منعشة تأتي من الجبال الشمالية) أما أنا فأفضل ريح الجنوب (على شدة حرها لمجيئها من الصحراء) لأنها تحمل لي معها رائحة عبدة الطيبة .

وما ذاك إلاَّ أنهـا حـين تَنتهـي
تَناهي وفيهـا من عُبَيْـدةَ طيب [1]
عَذيري من العُذّال إذ يعذِلونـني
سَفاهاً ؛ ومـا في العاذلـين لبيب .
يقولون : « لو عزَّيتَ قلبَك لارْعوى » ،
فقُلتُ : « وهل للعاشقين قلوب ؟ »
إذا نَطَـقَ القومُ الجلـوسُ فإنّني
مُكِبٌّ كـأني في الجميـعِ غريب !

٧ ـ الغزل والمجون :

وبَشار في غزله غير بَشار في نسيبه . اذا كان بَشار قد قصر أكثرَ نسيبهِ على امرأةٍ واحدة فإنّه قد وَسِـعَ بغَزَله كلّ امرأةٍ عَرَفَها فَمال إليها . وكان بَشارٌ يُصَرِّح في غزله ويُفْحِش في القول ، لأنّ غزلَه كان مرآة لنفسِه المندفعة إلى الفِسق . وبما أن بشّاراً وُلِدَ أكمَه ولم يُبْصِرْ شيئاً من الدنيا قطُّ فإنّه لم يَعْرِفْ إلاّ ما وصل إليه عن طريق اللمس والشَمّ والسمع . وبما أنّ هذه عادةٌ تُجَسِم الخيّالَ ، فإنّ بشاراً كان يندفع وراء خياله المجسّم متطلباً الصِلَةَ الطبيعيةَ بالمرأة يُعبِّر عنها بشعرٍ صريحٍ وألفاظٍ صريحةٍ وتعابيرَ وتراكيبَ مُثيرة . ولقد لام بعضُهم بشاراً على حُبِّ نساءٍ لا يرى فيهن المُبْصِرون جمالاً خاصّاً ، أو أنهم يَرَوْنَهُنَّ قِباحاً فرَدَّ بشارٌ على هؤلاء . وأبدى وِجْهةَ نظره وقال إنه لا يتطلبُ المرأة لمظهرِها الخارجي .

وما دام الغزلُ يتناولَ وصفَ أعضاء المرأة الظاهرة [1] ، فكيف كان بشارٌ يَصِفُ النساء ؟ كانَ بشار يعتمدُ ، في الأكثر ، ما يَسْمَع في الحديث

---

(١) راجع الفرق بين النسيب والغزل ، أبو نواس ١ : ٨٠ – ٨١ .

أو يروى له في الأدب أو يعرفه من طبيعة اللغة العربية . فإليك الآن أوصافاً للنساء عرّفها بشار من المصادر العامة (غ ٦ : ٢٣٥ ، ٢٤٤ ، ٣ : ١٩٣ ، ٢٤٨) :

* رُجُحُ الروادفِ ، كالظبا ء تعرّضتْ حُوّاً ووُطْفا [1] .
* لما طلعْنَ من الرقيقِ عليَّ بالبَرَدان خمسا [2] ،
وكأنّهُنَّ أهِلّةٌ تحتَ الثيابِ زَفَفْنَ شمسا .
* وغادةٍ سوداءَ برّاقةٍ كالماء في طيبٍ وفي لينِ .
كأنها صيغتْ لمن نالَها من عنبرٍ بالمسك معجون [3] ،
* يا قتيلاً قتلَتْه عبدةُ الحَوْراءُ [4] ظُلما .

ولكنَّ لبشارٍ آراءً خاصةً في الغزل أهمّها أنهُ يرى جمال المرأة من طريقِ الأذن لا من طريق العين . ثم يرى أن العينَ ليست أقدرَ على نقل الجمال إلى القلب ولا أصدق من الأذن . وهذا مما سبَقَ إليه بشارٌ وتفرَّد به وردّده في غزله ترديداً يَعْيا على الحصر . وأشهر ما قاله بشار في ذلك (غ ٣ : ٢٣٨) :

يُزَهّدُني في حُبّ عَبْدَةَ معشرٌ
قلوبُهُمُ فيها مخالِفَةٌ قلبي .
فقلتُ : « دَعُوا قلبي وما اختارَ وارتضى ،
فبالقلبِ لا بالعين يُبْصِر ذو اللُب .

---

(١) رجح الروادف : سمينات . حو جمع حواء : سمراء الشفة ، وطف جمع وطفاء : كثيفة شعر الحاجبين .
(٢) الرقيق والبردان : منزلان لبشار في البصرة .
(٣) العنبر والمسك طيبان أسمران .
(٤) الحوراء شديدة بياض العين شديدة سوادها .

ولا تُبْصِرُ العينانِ في موضع الهوى
ولا تسمَعُ الأذْنان إلاّ من القلـــب .
وما الحُسن إلا كلُّ حسنٍ دعا الهوى
وألّفَ بين العِشق والعاشق الصّبّ .

ثم كرّره (غ ٣ : ٢٣٨ مرتين) :

* يا قومُ ، أُذْني لبعض الحيّ عاشقةٌ ؛
والأذْنُ تعشقُ قبلَ العـــين أحيانا .
قالوا : « بمن لا تُرى تَهْذي ؟ » فقلتُلهم
« الأذْن كالعينِ تُوفي القلبَ ما كانا ! »
* قالتْ عُقيلُ بنُ كَعْبٍ ، إذ تعلّقها
قلبي فأضحى به من حُبّها أثـــرُ :
« أنّى » ، ولم ترَها ، تَهذي ؟ فقلت لهم :
« إن الفؤادَ يرى ما لا يرى البصر » .

هذا النوعُ من الإدراك للجمال يأتي بلا ريبٍ من طريق السمع في الدرجة الأولى . ومَع أن هذا الإدراكَ للجمال (من طريق الأذُن – أو من غير طريق العين ، على الأصح) قد نَبَع في نفس بشّارٍ في العصر الأمويّ ، وفي أثناء كلامِه على عَبدةَ ، فإنّه قدِ استمرّ لَدَيْهِ إلى العصر العبّاسيّ عند الكلام على كثيراتٍ من المحبوبات . ولقد أشارَ بشّارٌ إلى ذلك كلّه في مناسباتٍ مختلفة في أبياتٍ كِثارٍ (راجعْ مثلاً : البيان والتبيين ١ : ٢٢٦ – ٢٢٧ ؛ الخالديّان ٣٣ و ٣٤ ؛ مختارات الباروديّ ٤ : ١٩١) :

* فنعِمْنا ، والعينُ حيٌّ كَمَيْتٍ ، بحديثٍ كنَشوةِ الخنـــدريس [1] .

---

(١) لم أنعم برؤيتها لأنني أعمى ، ولكنني نعمت بحديثها . الخندريس : الخمر .

* وحديثٍ كأنه قِطَع الروْ ض ففيه الصفراءُ والحمراء .
* وكأن رَجْعَ حديثِها قِطَع الرياض كُسِين زهرا [1]
وكأن تحت لِسانِها هاروتَ ينفُثُ فيه سحرا [2]
* وحوراءِ المدامعِ من مَعَدٍّ كأن حديثَها ثمرُ الجِنان [3] .
* كأن لِساناً ساحراً في كلامها أعينَ بصوتٍ للقلوبِ صَيود ،
تُميت به ألبابَنا وقُلوبَنا مِراراً وتُحييهنّ بعدَ هُمود [4] .

ومثلُ هذا الإدراك ينتقل إلى مخيِّلةِ بَشّار من طريق الشم واللمس أيضاً .

غير أنّ بَشاراً لا يريدُ أن يشعُرَ الناسُ بما فيه من نقصٍ وبأنه لا يرى للبصر فَضْلاً . ولذلك قال : (الخالديان ٦٢ ، ٨٢ ، ٨٩ ، ١٠٥) :

* يُكَلّمها طرفي فتُومي بطَرْفها
فيُخْبرُ عما في الضمير من الوجْدِ [5] .
* أبيتُ أرْمَدَ ما لم أكْتحل بِكُمو
وفي اكتحالي بكم شافٍ من الرَمدِ [6] .
* إذا سَفَرَتْ طابَ النعيمُ بوَجْهها
وشُبِّهَ لي أنّ المضيقَ فضاءُ [7] .

---

(١) رجع حديثها : جوابها ، أو كلامها المعاد (مع أن الحديث المعاد ، عادة ، ثقيل على النفس) .
(٢) هاروت ساحر قدير مشهور كان ببابل قديماً ، وكان يعلم الناس السحر .
(٣) المدامع : العيون . الحور (بفتح ففتح) شدة البياض في بياض العين وشدة السواد في سوادها .
(٤) اللب : العقل . القلب (كناية عن العاطفة) . الهمود : (سكون الموت) . – تميت ألبابنا وقلوبنا (بالصد والهجر) وتحييهن (بوعد باللقاء) .
(٥) الرمد : مرض يكثر القذى منه في العين فتلتصق الأجفان به أحياناً حتى لا يستطيع الأرمد أن يفتح عينيه ليرى.
(٦) اكتحل بكمو (بكم) : أراكم .
(٧) سفرت : كشفت عن وجهها .

• يـــا منظـــراً حَسَنـــاً رَأيْتُهْ
مِـــنْ وَجْـــهِ جاريـــةٍ فدَيْتُـــهْ .

فالشاعر هنا يوهم الناسَ أنه مُبْصِرٌ وأنه عالمٌ بفضيلة البصر في الإعجاب بالجمال .

وغَزَل بشّارٍ غزلٌ صحيحٌ عذبٌ سهلٌ رقيق ينفُذُ إلى القلب ويُغري بألوان الغزل كُلّها . والحقُّ أنّ غزل بَشّار شعرٌ صحيح وأن مقدرةَ شاعرنا تتجلّى في غزله مثلما تتجلى في هِجائه او أحسنَ تجلياً . ومن أجمل مقطوعاتِ بَشارٍ التي يمتزج فيها الغزل بالنسيب قولُه (غ ٣ : ١٨٧ ، الخالديان ٢٩٦ ، تاريخ بغداد ٧ : ١١٧) :

أيّها الساقيانِ ، صُبّـــا شرابـــي ... واسْقِياني من ريقِ بيضاءَ رُودِ[١] .
إن دائـــي الصّدَى ، وإن شِفائي ... شَرْبَـــةٌ من رُضابِ ثغرٍ بَرود[٢]
ولهـــا مَبسِمٌ كغُـــرِّ الأقـــاحي ، ... وحديثٌ كالوَشْيِ وَشْيِ البرودِ .
نزلتْ في السواد مـــن حبّـــةِ القلـ ... ـبِ ونالتْ زيـــادةَ المستزيـــد ،
ثم قالتْ : « نَلْقاك بعدَ ليـــالٍ ! » ... والليـــالي يُبلِيـــنَ كـــلَّ جديد .
عندها الصبرُ عن لِقائي ، وعِنـــدي ... زَفَراتٌ يأكُلْنَ قلبَ الحديد !

ويتجلى غزله المادي (الذي يجوز لنا الاستشهاد به هنا) بالتصريح بمَيْلهِ إلى اللهو بالأوانس وقضاء اللُبانة من كل من وَجَد في نفسِه مَيْلاً إليها ، وهو في كل ذلك يصوِّر الصِفاتِ التي يحبها في المرأة (غ ٣ : ١٣٤ ، ١٥٥ ، الخالديان ٣٣) :

---

(١) الرود : الناعمة . صبا شرابي : ألقيا شرابي (الخمر) على الأرض واسقياني (بدلا من الخمر) ريق المحبوبة .

(٢) الصدى : العطش . الرضاب : الريق ما دام في الفم . برود : بارد .

يـــا ليلــتي تزدادُ نُكْـــرا   من حُبِّ منْ أحببْتُ بِكْرا .
حوْراءُ ، إنْ نظــرتْ إليــ   ـكَ سقتْكَ بالعينين خمرا [1] ،
وكـــأنَّ رَجْـــعَ حديثِهـــا   قِطَعُ الرِّياض كُسِينَ زهرا ،
وكـــأن تحـــتَ لِسانِهـــا   هاروتَ ينفُثُ فيه سحـــرا .
وتخـــال مـــا جُمِعَت عليـ   ـه ثيابُها ذهباً وعطـــرا ،
وكـــأنهـــا بَـــرْدُ الشرا   بِ صفا ووافقَ منك فِطرا [2] .
جِنِّيَّـــةٌ إنسيّـــةٌ ،   أو بينَ ذاك أجلُّ أمـــرا .
وكفـــاكِ أنيّ لـــم أُحِـــطْ   بشَكاةِ من أحْبَبْتُ خُبرا [3]
إلا مَقـــالـــةَ زائـــرٍ   نثرتْ ليَ الأحزان نـــثرا [4] ؟
مُتخشّعـــاً تحـــتَ الهـــوى   عشراً ، وتحتَ الموت عشرا .

ولِبشارٍ قصيدةٌ يُظهرُ فيها الإعجابَ بجريرِ بنِ عَطيّةَ ويضمِّن فيها بعضَ أبيات جريرٍ ، ولكنه يضَعُ فيها شيئاً من روحه ومن فلسفتِه في الحب ، منها (غ ٣ : ١٦٥ – ١٦٦ ، ٢٣٨ ، ٦ : ٢٤٢ ، راجع الصولي ٢١٦) :

وذاتِ دَلٍّ كأنَّ البدرَ صورتُهـــا
باتت تُغنِّي عميدَ القلبِ سكرانا :
(إنَّ العُيونَ التي في طرفِها حَوَرٌ
قتَلْننا ثم لم يُحْيِين قتْلانا) .

---

(١) راجع تفسير عدد من الكلمات في هذا البيت وفيما يليه صفحة ١٢٢ .
(٢) الفطر : « فسخ الصيام » (طعام الصائم عند غياب الشمس (بعد صيام يوم كامل) .
(٣) الشكاة : الشكوى. الخبر : العلم والمعرفة بالاختبار .
(٤) الزائر : الزائرة . نثرت لي الأحزان : قالت لي (من وصف تلك الفتاة) أشياء توجب الحزن (إذا لم أستطع الاتصال بمن وصفت تلك الزائرة) .

فقلتُ : أحْسَنْتِ ، يا سُؤْلي ويا أملي ،
فأسْمعيني ، جَزاكِ الله إحسانا :
(يا حَبّذا جبلُ الرَّيّان من جبلٍ ،
وحبذا ساكنُ الرَّيّان من كانا) .
قالتْ : فهلاّ فَدَتْكَ النفسُ أحسَنُ من
هذا لمن كان صبَّ القلبِ حيرانا :
« يا قومُ أُذني لبعض الحيّ عاشقةٌ ،
والأذنُ تعشق قبلَ العين أحيانا » .
فقلتُ : أحسنتِ ؛ أنتِ الشمسُ طالعةً
أضْرَمْتِ في القلبِ والأحشاء نيرانا .
فأسْمعينيَ صوتاً مُطْرِباً هَزَجاً
يَزيدُ صَبّاً مُحبّاً فيك أشجانا :
« يا ليتَني كنتُ تُفاحاً مُفَلّجَةً ،
أو كنتُ من قضُب الرَّيْحان ريحانا ،
حتى إذا وَجَدَتْ ريحي فأعجبَها ،
ونحن في خَلوةٍ ، مُثِّلْتُ إنسانا » .

بمثل البيتين الأخيرين وأشباههما من الأبيات التي تُثير العاطفة وتَبعثُ كامنَ الشهوة أثار بَشارٌ نِقمة العُلماء والأتقياء عليه مُنذ أواسطِ العصر الأمويّ حتى وَصلوا إلى أُذُنِ المَهديّ العباسي ، وكان غَيوراً ، فنَهى بشاراً عن أن يقول غزلاً عفيفاً أو فاحشاً ، لاعتقاد أتقياء المسلمين يومَذاك أنّ جميعَ أشعار بشارٍ تُفسِدُ النساء وتشجِّعُ الشُبّان على الفساد . فاكتفِ بهذه الرواية (غ ٣ : ٢٠٨ - ٢٠٩) :

قال بعض الشعراء : « أتيتُ بَشاراً الأعمى وبين يديهِ مائتَا دينارٍ ، فقال

لي ... : جاءني فتىً فقال لي : أنتَ بشار ؟ قلتُ : نعم ! فقال : إني آليْتُ (أقسمت) أنْ أدفعَ ، إليك مائتي دينارٍ ، وذلك أني عَشِقْتُ امرأةً فجئتُ إليها فكلّمتها فلم تلتفتْ إلي ، فَهَمَمْتُ أن أتركَها فذكَرْتُ قولَكَ :

لا يُؤْيِسَنَّكَ من مُخَبَّأةٍ قولٌ تُغَلِّظُهُ وإنْ جرَحا .
عُسْرُ النِساءِ إلى مُياسرةٍ ، والصعبُ يُمْكِنُ بعدما جَمَحا

فعُدتُ إليها فلازمتها حتى بلغتُ منها حاجتي » . ويظهرُ أنّ هذين البيتين كانا السببَ الذي من أجله منعَ المهديُّ بَشاراً عن قول الغزل (غ ٣ : ٢٢١) .

ولم يجدْ بشار بُدّاً من إطاعة الخليفة ولكنّه لم يستطع إلا أن ينفّس عن نفسه أيضاً بقولِ شيءٍ من الشعر في الغزل ، فاتّبع طريقَ حُميدِ بنِ ثور حينما « تقدّم عمرُ بنُ الخطاب رَضِيَ الله عنه إلى الشعراء ألاّ يُشبِّبَ أحدُهم بامرأةٍ الاّ جلَدَه » ، فجعَل حُميدُ بنُ ثورٍ يتغزّل بالأشجار (غ ٤ : ٣٥٦) . فكان من ذلك نشأةُ الرمْزِ في الشعرِ العربيّ أو في الشِعر عامّة .

ولكنّ بشّاراً كان أجرأ من حُميدِ بنِ ثورٍ وأكثرَ مَكْراً : كان يذكُرُ في شعره أن الخليفةَ قد نهاه أن يقولَ كذا وكذا ، فيكونُ بذلك قد قال كلَّ ما أرادَ قولَه صَراحةً تحتَ ستار من « المكر » ، هو أنّ الخليفة لا يُوافقُ على تلك الأقوال .

إنّ بشّاراً لم يكْتفِ بأنّه أطاعَ أمرَ الخليفةِ ظاهراً لا حقيقةً ، بل زاد في غزله هذا شرّاً جديداً : إنّه ابتدعَ نوعاً من الغزل المُورّى (يحتملُ كلُّ لفظٍ فيه وكلّ مدركٍ من مداركه معنَيَيْنِ عفيفاً وفاسقاً فينتشرُ المعنى الفاسق تحتَ سِتار المعنى العفيف) . ولقد كان ذلك أشدَّ فِعلاً في النفس

من الغزل العاديّ الصريح . ومن أشهر ما اتّفق لبشّارٍ في ذلك وأحسنه قولُه (غ ٣ : ٢١٢ ، ٢٣٩ ؛ الخالديّان ١٠٥) :

يـــا منظـــراً حسنـــاً رأيتُهْ   من وجه جارية [١] فَدَيْتُهْ !
بعثـــتْ إلـــيّ تَسومُـــني   ثوبَ الشباب [٢] وقد طويته .
والله ربِّ محمـــــد ،   مـــا إنْ غدرت ولا نويته [٣] .
أمسكْـــتُ عنـــه ؛ ورُبّمـــا   عـرَض البلاء وما ابتغيته [٤] .
إنّ الخليفـــةَ قـــد أبـــى ؛   وإذا أبـــى شيئـــاً أبيتـــه .
ومخضّـــب رخـــص البَنـــا   نِ بكى عليّ وما بكيتـــه [٥] .
ويَشُوقُـــني بيتُ الحبيـــ ...   بِ إذا ادّكَرْتُ ،وأينَ بيته [٦] !
قـــام الخليفـــةُ دونـــه   فصبرتُ عنـــه ومـــا قليته [٧] .
ونهـــانِيَ الملكُ الهُمـــا   مُ عـــن النّساء وما عصيْتُهْ
لا ، بـــل وفيتُ فلـــم أُضِـــع   عهداً ، ولا نأيـــاً رأيتـــه [٨] .

فبشارٌ لم يترك في هذه القصيدة عاطفةً في نفسه إلا أبداها . ثُمّ هو استطاعَ أنْ يُبْرِزَها في لِباس أبهى وأحلى ، وفي صورة أكثر جَذْباً للقلوب وأشدَّ استهواءً للنفوس .

---

(١) الجارية : الفتاة الصغيرة .
(٢) تسومني (تريد أن تشتري مني) . ثوب الشباب : لهو الشباب . طويت ثوب الشباب : تركت ما يفعله الشبان مما يتعلق بالعواطف .
(٣) ما غدرت : لا أغدر بالعهد الذي قطعته للخليفة بألا ألهو ولا أتغزل . ولا نويت الغدر .
(٤) ربما عرض لي البلاء فوقعت فيه (ارتكبت إثماً) ولم أقصد أن أفعل ذلك .
(٥) مخضب (مصبوغ بالحمرة) رخص (لين) البنان (الأصابع ، أطراف الأصابع) كناية على الجمال والشباب . بكى علي (حزن لتوبتي عن الغزل وفعل الغزل) وما بكيته (بكيت عليه : حزنت لفراقه) .
(٦) ادكر : تذكر. يشوقني بيت الحبيب : يجعلني أشتاق إليه . وأين بيته : ما أبعد بيته .
(٧) قام الخليفة دونه : منعني عن قوله أو فعله . قليته : أبغضته ، كرهته .
(٨) أنا أطعت الخليفة فتركت قول الغزل ، ولكن ترك الغزل لم يكن من رأيي أنا .

ولبشار في هذا الباب فنونٌ كثيرة أرى أن أثبت منها أبياتاً من قصيدةٍ عامرة بالأغراض المختلفة ، ولكنّ موضع الشاهد فيها خُبثُهُ في إيراد غزَله بعد أن منعه المهدي عن الغزل (غ ٣ : ٢٠٩ ، ٢١٩ — ٢٢٠ ، ٢٤٢ — ٢٤٣ ، الخالديان ١٨٠ — ١٨١ تاريخ بغداد ٧ : ١١٨) :

وقالتْ سُليمى : « فيكَ عنا جَلادةٌ :
مَحَلُّكَ دانٍ ، والزيــارة عن عُفر[1] .
أخي في الهوى ، ما لي أراك جَفَوْتَنا ؟
وقد كنتَ تَقْفونا على العُسر واليُسر[2] ! »
دفنتُ الهــوى حيّــاً فلستُ بزائــرٍ
سُليمى ولا صَفراءَ ما قَرْقَرِ القُمري[3] .
ومُصْفَــرَّةٍ بالزَّعْفــرانِ جُلودُها
إذا اجْتُلِيَتْ مثل المُفَرْطَحَةِ الصُفر[4] .
وعارضةٍ سِرّاً وعنــدي مَنــادحٌ ،
فقلتُ لها : « لا أشربُ الماءَ بالخمر » [5] .
فرُبَّ ثِقــالِ الرِدْفِ هبّت تَلومــني ،
ولو شَهِدَتْ قبري لَصَلّتْ على قبري[6]

---

(١) العفر (بالضم) ليال من الشهر (السابعة والثامنة والتاسعة) . والزيارة عن عفر : نادرة .

(٢) تقفونا : تتبعنا ، تلازمنا .

(٣) قرقر (ردد الصوت في حنجرته) القمري (نوع من الحمام صوته حسن جداً) . ما قرقر القمري : دائما .

(٤) ومصفرة بالزعفران جلودها : تدهن جسمها بالزعفران (نبات أصفر) كناية عن تجميل الجسم . اجتلى : نظر إلى الشيء . المفرطحة (المبسوطة السطح) الصفر : الدنانير .

(٥) السر : ما يجب كتمانه . والسر : النكاح . منادح جمع مندوحة : أرض متسعة (سعة من الأمر) ، يقصد أنه متزوج فلا يحتاج إلى اتصال بامرأة أخرى . لا أشرب الماء بالخمر (أشرب ماء بلا خمر) : لا أخلط بالحلال (الذي عندي في بيتي) حراماً (صلة غير شرعية) .

(٦) ثقال الردف (سمينة وسط الجسم) كناية عنده عن الجمال. هبت تلومني : نهضت غاضبة =

تركـتُ لِمَهـديٍّ الأنـامِ وِصالهَا
وراعيتُ عهداً بينَنا ليس بالخَـتْرِ (١) .
ولـولا أمـيرُ المؤمنـين محمـدٌ
لقبّلْتُ فاها أو لَكانَ بها فِطْري (٢) .

* * *

وكان بشارٌ لا يرى « الغزل المذكر » ، فهو مفقود في شعرِه لِفِقدانه في طبعه . وقد سُئل عن ذلك فأدلى برأيه (غ ٣ : ١٨٤) .

ولكنْ قد ترى له مثل هذه الأبيات (الخالديان ١٤٧ ــ ١٤٨) :

وشخصٍ طيّـبِ الأردا ... نِ لا تَعرِفُ أمثالَهْ ،
بكى جوعـاً وِشاحـاه ... وقد أشْبَعَ خِلخالَه (٣) .
أتانـا يَحْمِلُ الشوقَ ... وما يحمـل أوصالَهْ .

فيَسْبِق الوهمُ إلى أنه يريدُ غيرَ أنثى ، ولكنّ الحقيقة أنه يُصَرّف هنا الضمائرَ المذكرة للكناية عن الأنثى . وهذا شيء معروف في الشعر العربي منذ الجاهلية ، عند طَرَفَةَ بنِ العبدِ مثلاً في قولهِ :

وفي الحيِّ أحوى ينفُضُ المَرْدَ شادنٌ
مُظاهِرُ سِمْطَيْ لُؤلُؤ وزَبَرْجدِ .

= تلومني (على ترك زيارتها) . ولو شهدت قبري (لو شاهدت دفني) لصلت على قبري (لحزنت جداً، ولازمت زيارة قبري، لكثرة حبها إياي) .

(١) الختر : الغدر .

(٢) لكان بها فطري : لولا منع الخليفة إياي عن زيارة النساء لقبلت فلانة أو أفطرت في رمضان بلقائها (وهذا أمر عظيم في الاسلام يقضي أن يصوم المفطر يوماً واحداً بسببه ستين يوماً) .

(٣) نحيل أعلى الجسم سمين موضع الخلخال (من أدنى الساق) .

(الأحوى : الأسمر الشفة . الشادن : الغزال الصغير . المَرْدُ : ثمر شجر الأراك . نَفَضَ المَرْدَ : حاول أن يَطالَه ؟ . مُظاهِرُ سِمْطَيْ ... يلبَسُ عقداً مُزْدَوِجاً) . غير أن طرفة هنا يصف أنثى بألفاظ ضمائرها مذكرة .

٨ – الوصف :

قال بشار (غ ٣ : ١٧١) :

عجِبَتْ فَطْمَـةُ من نعـتي لها . هل يُجيدُ النعتَ مكفوفُ البصرْ !

وهذا الذي عَجِبتْ منه فاطمةُ قد عَجِبَ منه الناسُ كُلُّهم ، فقد قيل لبشار يوماً ، وقد أنْشَدَ قولَه :

كأنّ مُثارَ النَقْعِ فـوقَ رؤوسِنا وأسيافَنا ليلٌ تَهاوى كواكبُهْ ،

ما قال أحدٌ أحسنَ من هذا التشبيه ، فمن أينَ لك هذا ، وأنتَ لم ترَ الدنيا قطُّ ، ولا شيئاً منها ؟ فقال : إنّ عَدَمَ النَظَر يُقوّي ذَكاءَ القلب ويقطع عنه الشُغْلَ بما ينظر اليه من الأشياء ، فيتوفّر حِسه وتَذْكو قريحتُه (غ ٣ : ١٤٢) .

وكذلك عجب الجاحظُ (البيان والتبيين ١ : ١٩٢) حينما رأى بشاراً قد اهتدى من الوصف « إلى ما لا يبلُغه تمييزُ البصير » . وحاول الأصفهاني أن يحُلّ هذا اللُّغزَ فقال (غ ٣ : ١٤٢) : وُلِدَ بشارٌ أعْمَى فما نظرَ الدنيا قطُّ . وكان يُشَبِّهُ الأشياءَ بعضَها ببعضٍ في شعره . ومَعَ ذلك لم يتمالك الأصفهاني عن أن يقول : « فيأتي بما لا يَقدِرُ البُصراءُ أن يأتوا بمثله » . وكذلك فعل الصولي (أخبار أبي تمام ١٨) حينما عَرَض لقول بشار « كأن مثار النقع » فقال : « وهذا شعرُ أكْمَهَ لم ير هذا بعينه قطُّ فشبّهه

حَدْماً فأحْسَنَ وأجْمَلَ » (أوجز ، اختصر ؟) .

إن الوصف على الحصْر قليلٌ عند بشّار ، وإنْ كانت تشابيهُ بشارٍ واستعاراته كثيرةً . غيرَ أن بعضَها موفّقٌ وبعضَها بعيدٌ عن التوفيقِ لأنّه كانَ يعتمدُ دائماً تشابيهَ الشعراء فيصوغُ مِثْلَها . ولكنه ربما ولّد منها شيئاً يَحسُن في المعنى ، وربما عثر .

وأرى أن نقسم أوصاف بشارٍ ، على قِلتها ، ثلاثةَ أقسامٍ : الطبيعةَ وما يَجْري مجراها ، والخمريات ، ووصف المعارك .

(أ) وصف الطبيعة – اعتمد بشار في وصف الطبيعة ما كان يأتي به الشعراء قبلَه وفي عهده . ونحن إذا استثنينا ما قاله بشارٌ في غزله من الأوصاف وفي تشبيه شعرهِ وتشبيه الحديثِ بالرياضِ والأزهار ، لم يكن لنا بد من أن نُشيرَ إلى « وصف السفينة » وهُوَ أربعةُ أبياتٍ وردتْ في أثناء مدحهِ للمَهْديّ بعد أن نَهاه المهديُّ عن الغزل (غ ٣ : ٢٤٢) :

وعَذراءَ لا تجــري بلحْمٍ ولا دَمِ
قليلةُ شَكْوى الأيْنِ مُلْجَمَةُ الدُّبْرِ[١] ؛
إذا ظَعنتْ فيهــا الفلــولُ تَشَخَّصَتْ
بفُرسانِها لا في وُعوث ولا وَعْــرِ[٢] .
وان قَصَــدَتْ زلّت عــلى مُتَنَصِّبٍ
ذليلِ القُوى لا شيءَ يَفْري كما تفري[٣] .

---

(١) عذراء (؟) . الأين : التعب . ملجمة الدبر (كناية عن أن لها دفة أو سكان – بضم السين وتشديد الكاف من ورائها ، توجه من خلفها لا من أمامها) .

(٢) ظعنت : سافرت (ركبت) . الفلول (الجماعات) . تشخصت : ارتفعت (على الموج) ، سافرت من بلد إلى بلد . بفرسانها : بركابها . الوعوث جمع وعث : الأرض اللينة .

(٣) قصدت : سارت سيراً معتدلا ليناً . (أرادت أن تسير على استقامة) . زلت : سقطت ، هوت . متنصب : ما يرتفع وينخفض (يقصد الموج) . فرى : قطع ، شق .

تُلاعبُ نِينانَ البحورِ ، وربّما
رأيتَ نفوسَ القومِ من جَرْيِها تجري[1] .

(ب) الخمر – ليس لبشارٍ خمرياتٌ ، ولكنّ له وصفاً للخمر . شَرِبَ بَشار الخمر لا شك في ذلك (غ ٣ : ١٦٩) وقال فيها شيئاً يسيراً غيرَ مستقل بنفسه . ونحن نجد له بضعةَ أبياتٍ في ثنايا غزلهِ ونسيبهِ أو في ثنايا هجائه . ولكنّ خمرياتهِ الصحيحةَ تأتي في بابِ الرثاء ، وهو في ذلك كُلِّه يُحاول أن يخفّف بشُربِ الخمر عن نفسِه بعضَ الأسى أوِ الضجر (الخالديان ٢٥ ، ٢٦٥) .

• فاشْرَبْ على تَلَفِ الأحبّةِ إنّنا
جَزَرُ المَنيّةِ ظاعنينَ وخُضّعا[2] .
• ذراني أشُبْ همّي بِراحٍ فإنّني
أرى الدهرَ فيه فُرْجةٌ ومضيقُ[3] .

ومن أشهَرِ ما لبشارٍ في الخمر وأحسنِه قولُه في أثناء رثاءٍ لصديق له غَرِقَ في نهر البصرة (غ ٣ : ٢٣٥) :

ربَّ كأسٍ كالسَّلْسبيلِ تعَلّلْـ
ـتُ بها والعيونُ عني نِيامُ[4] .
حُبِسَتْ للشراةِ في بيْتِ رأس
عُتِّقَتْ عانساً عليها الخِتام[5] .

---

(١) نينان جمع نون (سمكة) . رأيت نفوس القوم... تجري : تخفق بشدة ، تضطرب (من الخوف) .
(٢) تلف الأحبة : هلاكهم ، موتهم (حتّى تنسى الحزن عليهم) . جزر : ذبيحة . ظاعنين : مسافرين . خضع : مستقرون أو مجبرون على الرضا بأن الموت حتم .
(٣) ذراني : اتركاني ، دعاني (فعل أمر لمثنى المخاطب) . شاب : مزج . راح : خمر .
(٤) السلسبيل : الماء السائغ العذب (شراب أهل الجنة) .
(٥) الشراة : الذين يشترون (الخمر) . بيت رأس : اسم لقريتين مشهورتين بالكروم والخمر ،=

نَفَحَت نَفْحَةٌ فهزّت نديمي
بنسيمٍ فانْشَقَّ عنه الزُّكام .
وكأن المَعْلولَ منها ، اذا را
حَ ، شَجٍ في لسانِه بِرسام [1] .
صدمته الشَّمول حتى بعينيـ
ـه انكسارٌ وفي المفاصل خام [2] .
وهو باقي الأطرافِ ، حيّت به الكأ
سُ وماتت أوصالُهُ والكلام .
وفتىً يشرَبُ المُدامة بالما
لِ ويمشي يروم ما لا يُرام ،
أنفَدَتْ كأسُه الدنانيرَ حتى
ذَهبَ العينُ واستمر السّوام [3] .
تركَتْه الصّهْباءُ يرنو بعينٍ
نام إنسانُها وليس تَنام .
جُن من شَربةٍ تُعَلُّ بأخرى ،
وبكى حين سار فيه المُدام .

ولم تنل الخمر من بَشار ابداعاً ، ولذلك كان لزاماً عليها أن تنتظر المبدع الأول والأكبر أبا نواس .

(ج) وصف الحرب — لم يستطع بشارٌ أن يَعْرِفَ الحربَ والمعارك

= احداهما قرب القدس والثانية بنواحي حلب . العانس : التي شاخت ولم تتزوج (كناية عن قدم الخمر) .

(١) شج : حزين . برسام : هذيان .

(٢) خام : فتور .

(٣) العين : الذهب . استمر : ذهب على طريقة واحدة . السوام الماشية . والمعنى أنه فقد كل ما يملك .

ولكنه وَصَفَها كلّها وصفاً رائعاً قصّر في تفاصيله الدقيقة عن أبي تمام والمتنبي ، ولكنْ لم ينحطّ في روحه وحماسته عنهما قطّ . ولقد أجاد تصويرَ الجيش المنهزم حتى قال ابن رشيق (العمدة ٢ : ٢٠) « ولا يوجَدُ في ذِكر الهزيمةِ زِيادةٌ على ما ذَكَرَ بشّار في قوله :

فراحوا : فريقٌ في الإسار ، ومِثلُه قتيلٌ ، ومِثْلٌ لاذَ بالبحر هاربهْ .

وأُحِبُّ أن أثبِتَ هنا جانباً من القصيدة التي جاء فيها ذِكرُ هذه المَعْرَكة – وكنتُ قد جَمَعْتُ هذه الأبيات ونَسَقْتُها ، قبلَ أن يَنشُرَ محمّدُ الطاهرُ ابنُ عاشور نُسخَةَ مكتبتهِ من ديوان بشارٍ – معتمداً عدداً من المصادر (غ ٣ : ١٩٧ – ١٩٨ ، ٢٣٦ – ٢٣٧ ؛ الخالديان ١ ؛ تاريخ بغداد ٧ : ١١٥) . ولقد ظلّ عددٌ من الأبيات (١٩ – ٢٤) قَلِقاً في تَرْتيبي المقتَرَحِ لأنني اتبَعْتُ المَنْطق في وَحْدةِ الموضوع ، ولا يَتّبِعُ الشعراءُ عادةً مثلَ هذا المنطق . وعلى كلٍّ فإنّ القصيدة الآن موجودة في الديوان (١ : ٣٠٥ – ٣٢٣) وتَعُدُّ فيه خمسةً وثمانين بيتاً . ومَع ذلك ، فإنّ في تَرْتيبي هذا أربعةَ أبياتٍ ليستْ موجودةً في الديوان (راجع مقدّمة هذه الدراسة ، ص ١٣) . قال بشّارٌ يمدَحُ يزيدَ بنَ عُمَرَ بن هُبيرةَ (سَنَةَ ١٢٨ هـ = ٧٤٥ م) ويصف حربَه للضحّاك بن قيسٍ الشيبانيِّ الخارجيّ :

جفا وُدَّه فازورّ أو ملّ صاحبُهْ
وأزْرى به ألاّ يَزالَ يعاتبُهْ[1] .
خليليّ ، لا تستكثرا لَوْعةَ الهوى
ولا سَلوةَ المحزونِ شطّت حبائبُهْ :

---

(١) كره صحبة صديقه فابتعد عنه ، أو أن الصديق مله . وعيب هذا الرجل أنه كثير العتاب لصديقه .

فقد رابني قلبي يُكَلِّفُني الصِّبا ،
وما كلَّ حينٍ يتبَعُ القلبَ صاحبُهْ .

إذا كان خرّاجاً أخوك من الهوى
مُوَجّهَةً في كلِّ أوْبٍ ركائبه (١) .

فخلِّ لـه وجهَ الفِراقِ ولا تَكُنْ
مَطِيّةَ رَحّالٍ بعيدٍ مذاهِبُه (٢) .

إذا كنتَ في كُلِّ الأمورِ مُعاتباً
صديقَكَ لم تَلْقَ الذي لا تُعاتبه ،

فعِشْ واحداً أو صِلْ أخاك فإنه
مُقارِفُ ذنبٍ مرةً ومُجانبه (٣) .

أخوك الذي إنْ تَدْعُهُ لمُلِمّةٍ
يُجِبْكَ ، وإن عاتَبْتَهُ لانَ جانبه .

إذا أنتَ لم تشرَبْ مِراراً على القذى
ظَمِئْتَ ؛ وأيُّ الناسِ تصفو مَشاربه ؟

ومَنْ ذا الذي تُرْضي سَجاياه كُلُّها
كفى المرءَ نبلاً أنْ تُعَدَّ معائبه !

يَخافُ المنايا إنْ تَرَحّلْتُ صاحبي ،
كأنَّ المنايا في المُقام تناسبهُ (٤) .

(١ و ٢) إذا كان صديقك يريد أن يترك صداقتك لأن أطماعه تذهب به إلى كل جهة ، فاتركه وشأنه ولا تكن له مطية يبلغ عليها أطماعه التي لا تنتهي .

(٣) عش وحدك بعيداً عن الناس أو عش مع الناس واقبلهم على علاتهم ، مرة يقترفون ذنباً ومرة يجانبونه (لا يقترفونه) .

(٤) يخاف صاحبي (يقصد امرأته) أن أموت إذا سافرت ، ويظن انني إذا بقيت في العراق لا أموت ، كأن الموت من أقاربي فهو لا يقربني ما دمت مقيماً معه .

فقُلتُ له : « إن العِراق مُقامــــه
وخيمٌ ، إذا هبّتْ عليه جَنائبــه » (١) .

سألقَــى بني عَيْــلانَ إن فَعــالهم
يزيدُ على كل الفَعــال مراتبــه (٢) .

أولاك الأولى شقّــوا العمى بسيوفِهم
عن العين حتى أبْصرَ الحــقّ طالبه .

رُوَيـــداً تَصاهَــلْ بالعِــراقِ جِيادُنا
كأنّك بالضّحاكِ قد قام نادِبُهْ (٣) .

وسامٍ لمروانٍ ومن دونــه الشّجــا
وهَوْلٌ كلُجِّ البحرِ جاشت غواربه (٤) .

وجيشٍ كجُنْحِ الليل يزحَفُ بالحَصى
وبالشَوْك والخَطّيِّ حُمراً ثعالبه (٥) .

وارعنَ يَغْشى الشمسَ لونُ حديــده
وتَحْبِسُ أبصارَ الكُماةِ كتائبه (٦) .

---

(١) ولكنني قلت له ان البقاء في العراق في الصيف وخيم العاقبة ،وخصوصاً متى بدأت الرياح تهب من الجنوب .

(٢) الفعال : الكرم ، الفعل الجميل .

(٣) انتظر حتى تسمع صهيل خيلنا في العراق (حتى نأتي إلى العراق) حينئذ تقوم النادبة على الضحاك، أي يقتل .

(٤) وسام لمروان : متطلع إلى حرب مروان . الشجا : الغصة تعترض في الحلق . الغوارب : الأمواج .

(٥) كجنح الليل : أسود لكثرة ما فيه من الحديد ؛ دروع وسيوف الخ . الحصى : العدد الكثير . الشوك : السلاح. الخطي: الرماح. حمراً ثعالبه : رؤوس رماحه حمر لما اصطبغت به من دماء الأعداء .

(٦) أرعن : أحمق ، يقصد الجيش ، يصفه بالرعونة لأنه ممتلىء حماسة وهو ذاهب إلى الحرب ، يغشى الشمس لون حديده : ان سواد الدروع والسلاح يغطي نور الشمس . وتحبس أبصار=

تَغَصُّ به الأرضُ الفضاءُ اذا غـــدا
تزاحم أركـــانَ الجبال مَناكبه [1] ،
رَكِبْنَـــا له جَهْـــراً بكـــل مُثَقَّف
وأبيضَ تستسقي الدماءَ مَضاربه [2] .
فلمـــا تولى الحـــرُّ واعتَصَرَ الـــثرى
لظى الصيفِ من نجمٍ تَوَقَّدَ لاهبه [3] ،
وطارت عصافيرُ الشقائـــقِ واكْتسى
من الآلِ ـ أمثالَ المَجَرَّةِ ـ ناضبُه [4]
غدت عانةٌ تشكو بأبصارِهـــا الصَّدى
إلى الجأبِ إلاّ أنّهـــا لا تُخاطبـــه [5]
غَدَوْنا له والشّمسُ في خِـــدْرِ أمِّها
تُطالعُنا والطّـــلُّ لم يَجْرِ ذائبه [6]

= الكماة كتائبه : ان أقسام هذا الجيش كثيرة جداً حتى إنها سدت الأفق ، فأصبح الكمي (الجندي الشجاع) لا يبصر حوله إلا جنوداً ولا يستطيع أن يبصر شيئاً آخر .

(١) ان الأرض الواسعة تضيق بهذا الجيش ، حتى ان الجبال ، على سعة ما بينها ، تعرقل مسير هذا الجيش – يصف بشار بهذه الأبيات الثلاثة جيش العدو .

(٢) هاجمنا هذا الجيش علناً ، غير مستترين ، بالرماح وبالسيوف العطشى إلى الدم .

(٣) تولى الحر : صار والياً ، اشتد . اعتصر الثرى (مفعول به) لظى الحر : ان شدة الحر قد عصرت التراب فأصبح شديد الجفاف . من نجم توقد لاهبه ؛ اشارة إلى نزول الشمس في برج الجوزاء (؟) لأن ذلك يكون في نصف الصيف ، قال أبو نواس : أنضجتنا كواكـــب الجوزاء .

(٤) الشقائق جمع شقيقة : الأرض الصلبة . الآل : السراب . المجرة : نظام عظيم من النجوم يعترض في السماء . – جفت هذه الأرض جفافاً شديداً فطارت عصافيرها وامتلأ سطحها بسراب متسع يرى شديد اللمعان من بعيد كالمجرة .

(٥) عانة : قطيع من حمر الوحش . الصدى : العطش . الجأب : الذكر من حمر الوحش – اشتد العطش بهذا القطيع فجعل يشكو إلى الجأب (زعيم القطيع) بنظراته ، لأن شدة العطش منعته الكلام .

(٦) والشمس في خدر أمها : لم تطلع بعد . تطالعنا : تريد أن تطلع علينا (؟) والطل لم يجر ذائبه :=

بضَرْبٍ يذوقُ الموتَ من ذاق طعمَه ،
وتُدرِكُ من نَجّى الفِرارُ مثالبه [1] .

أحلّتْ بنا أمُّ المنايا بناتِها
بأسيافِنا ، إنّا رَدى مَنْ نُحاربه [2] .

وكُنّا إذا دَبَّ العَدُوُّ لسُخطِنا
وراقبنا في ظاهرٍ لا نُراقبه [3] .

كأن مُثارَ النّقعِ فوقَ رؤوسِنا
وأسيافَنا لَيْلٌ تَهاوَى كواكبه [4] .

بعَثْنَا لَهُمْ مَوْتَ الفُجاءةِ إنّنا
بنو الموتِ خفّاقٌ عليه سَبائبه [5] .

فراحوا فَريقاً في الإسارِ ، ومثلُه
قتيلٌ ، ومثلٌ لاذ بالبحرِ هاربه .

إذا الملكُ الجبّارُ صَعّرَ خَدّه
مَشَيْنا إليه بالسيوف نُعاتبه [6] .

= لا يزال الندى جامداً على الأغصان . وليس ذلك بمستغرب ، فمناخ العراق قاري شديد الحرارة في النهار بارد في الليل وفي الصيف أيضاً . على أننا يجب أن نلاحظ مبالغة بشار أيضاً .

(١) من ذاق ضربنا بالسيف مات ، ومن نجا بالفرار منا لحقه عار الفرار .

(٢) ان الموت قد وضع في سيوفنا آجال الناس ، فكل من حاربنا كان حربنا اياه موتاً له .

(٣) إذا اقترب عدونا منا خفية ثم تظاهر بالمودة فاننا لا نخافه بل نجاهره بالعداوة .

(٤) يشبه الغبار الأسود الثائر فوق رؤوس المتحاربين بالليل ، ويشبه رؤوس السيوف وهي تتوالى بسرعة ارتفاعاً وانخفاضاً على العدو بالرجوم التي تتساقط من السماء في الليلة المظلمة .

(٥) كان العدو يعتقد أننا لم نفطن لما يريد ، فلما جاهرناه بالعداوة وهاجمناه كان ذلك مفاجأة له .

(٦) صعر خده : أماله بأنفة (تكبر وتجبر) .

وقد جمع محمّدُ بدرِ الدينِ العلويُّ من هذه القصيدةِ (فيما يعتقد) خمسةً وأربعين بيتاً (ديوان شعر بشّار أبي المحدثين — بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٦٣ م — ص ٤٣ وما بعد) ورَفَدَها بتَخْريجٍ (ذِكْرِ المواضعِ التي وجد فيها الأبيات من الكتب المختلفة) مُفصّلٍ . والترتيبُ للأبياتِ عنده مختلفٌ جداً من ترتيبها عند محمّدِ الطاهرِ بنِ عاشورٍ وعندي . وكذلك القراءاتُ كثيرةُ الاختلاف . ويبدو لي أن محمدَ بدْرِ الدينِ العَلَويَّ قد قَبِلَ أبياتاً على أنها من هذه القصيدةِ وليست منها ، فإنّ من هذه الأبياتِ ما ليس مِنْ نجْرِ أبياتِ بشّارٍ كالبيتِ التالي مثلاً :

ولا أشربُ الماءَ الذي يحمل القذى ،
أجل ، لا ولا أسقي به من نصاحبه .

فبالإضافة إلى أن التركيب في هذا البيت ركيكٌ ، فما حاجة بشارٍ إلى أن يقول هذا البيتَ المضطربَ المعنى بعدَ أن قال ذلك البيت المتين الواضح :

إذا أنتَ لم تشربْ مِراراً على القذى
ظَمِئْتَ ، وأيُّ الناس تصفو مشارِبُهْ؟

والأبيات التسعة التي أوْرَدها محمّدُ بدرِ الدين العلويُّ تحتاجُ إلى دراسة وتثبّت . ولستُ أُحيلُ أن يكونَ بعضُها لبشّارٍ ، على رويِّ هذه القصيدةِ نفسِه ولكن من قصيدةٍ أخرى في عَبْدَةَ ، كالبيتين التاليين :

وأحورَ محسودٍ على حُسن وجهه
يزَينُ السمُوطَ نحرُه وترائِبُهْ
شفى النفس ما يلقى بعبدةَ مُغْرَماً
وما كان يلقى قلبُه وضرائبه

٩ ــ الأدب والحكمة :

ومما يمتاز به بَشار في شعره « باب الأدب » ، ولا غرو فهو قد عاصر عبدَ الله بن المقفع وعاصر نَقْلَ كُتب الأدب والكِياسة من اللغة الفارسية . وقد استطاع بشارٌ أن يُضمّن كثيراً من قصائده آراءً جميلة صائبة في الصَداقة والمَشورة والحزم والحياة والاعتقاد ، وفي المصانعة أحيانا . ويمتاز اتجاهه في « أدبه » هذا بالقوة والتصلّب والصراحة ، وربما أتى بشّار بهذه الآراء في شعر سَهْل عَذْبٍ أو في شعر فخْمٍ متين ، حسْبَ الموضوع الذي يعالجه . فشعره في العتاب الذي مر بك في باب وصف الحرب : « إذا كنت في كل الامور معاتباً صديقك ... » متين فخم كقوله في المشورة أيضاً (غ ٣ : ١٥٧ ــ ١٥٨) :

إذا بلــغَ الرأيُ المَشُورَةَ فــاسْتَعِنْ
برأيِ نصيحٍ أو نصيحةِ حــازمِ (١) .
ولا تجعَلِ الشُّورى عليكَ غَضاضةً
فإنَّ الخوافي قُــوَّةٌ للقــوادم (٢) .
وما خيرُ كفٍّ أمْسك الغُــلُّ أُختَها ؟
وما خيرُ سيفٍ لم يؤيّدْ بقائم (٣) ؟

---

(١) إذا بلغ الرأي المشورة : إذا غم (بالبناء للمجهول) الأمر عليك وأصبحت محتاجاً إلى استشارة غيرك . الحازم : الذي لا يتردد في أمور.

(٢) لا تظن أن استشارة الآخرين (ولو كانوا أدنى منك) مدعاة إلى الخجل أو الاحتقار للنفس . الخوافي : الريش الصغير يكون بين الريش الكبار في جناح الطير (وهو يمنع الهواء من التسرب من خلال الريش الكبار ، وإلا لم يستطع الطائر أن يرتفع في الهواء. القوادم : جمع قادمة (الريشة الكبيرة) .

(٣) إذا قيدت احدى يدي الانسان فان اليد الأخرى لا تستطيع وحدها عملا . وان نصل السيف ، =

وخلِّ الهُوَيْنَـا للضعيفِ ولا تَكُـنْ
نَؤُوماً ، فـان الحزْمَ ليسَ بنائمِ .
وحارِبْ إذا لم تُعْـطَ إلا ظُلامـةً ،
شَبَا الحربِ خيرٌ من قَبول المَظالم [1] .

ومن الآراء التي وضعها بَشارٌ في أسلوب سهل عذب قولُه في حقيقةِ الإخاء وفي رياء الناس (مختارات البارودي ٤ : ٥) .

خيرُ إخوانِكَ المُشارِكُ في المُـ ـرِّ ؛ وأينَ الشريكُ في المُرِّ أينا ؟
الّذي إنْ شَهِدتَ سرَّكَ في الحيِّ ، وإنْ غِبْتَ كـان أذناً وعَيْنا .
مثلُ سِرِّ الياقوتِ إنْ مَسّهُ النـا رُ جلاه البَلاءُ فازدادَ زَينا [2] .
أنتَ في مَعْشرٍ إذا غِبْتَ عنهـم بدّلوا كلَّ ما يَزينُكَ شَينا [3] ،
وإذا مـا رَأوْكَ قالـوا جميعـاً : « أنتَ من أحْسَنِ البَرايا علينا ! »
ما أرى للأنـامِ وُدّاً صحيحـاً ، عادكلُّ الأنامِ زُوراً ومَيْنا [4] ...

ثم هنالك الآراء العلمية الفلسفية التي مرّ الكلام على بعضها في الكلام على عناصر شخصيته . وهنالك كثير من آرائه المنثورة في ثنايا هجائه وتضاعيف مديحه ونسيبه .

* * *

= مهما يكن جيداً ماضياً فلا فائدة منه ما لم يكن له مقبض من خشب أو حديد يتمكن المحارب من امساكه لحسن استعمال نصل السيف .

(١) الظلامة : ما يشكو المرء منه (الحق المسلوب) . شبا الحرب : حد السيف ، الخ (القتال مع البأس من النصر) خير من الخضوع للذل .
(٢) البلاء : الاختبار (بالنار) .
(٣) الشين : العيب ، النقيصة .
(٤) المين : الكذب .

إن بَشاراً شاعرٌ كبير . وهو وإن لم يكن أكبرَ الشعراء المُحدَثين بإطلاق ، فإنّه بلا ريبٍ أكبرُهم وأعظمُهم فضلاً على الخروج بالشعر العربيّ من صلابته الأموية إلى مُرونته العباسية ، وعلى تذليله الأوزانَ والقوافي حتى تُعيرَ نفسَها لمعالجة الآراء والمعاني التي حفَلَت بها البِيئة العباسية . ولم تكن السهولةُ في بعض أسلوبه ضَعْفاً بل ابتكار ، لأنه كان مقتدراً في الأساليب القديمة التي وَجَدها في بِيئته العربية الخالصة كما كان مقتدراً في الأساليب التي وَضَع أكثرَ أسُسِها في بِيئته المحدثَة المولّدة .

مختارات من شعره

ـ قال بشارُ بنُ بُردٍ في الشكوى من الدهر ومن إخوانه ومن نفسه ، وفي هذه القطعة الاتجاهُ المُحْدَثُ في المعاني وفي الألفاظ والتراكيب :

قد لَعِبَ الدهرُ على هامتي [1] وذُقْتُ مُراً بعدَ حَلْواء .
إنْ كنتَ حرباً لهمو [2] فانْظُري شَطْري بعينٍ غير حَوْلاء .
يا حُسنَهَا لما تراءتْ لنـــا مكسورةَ العينِ بإغفـــاء .
كأنّمـــا ألبَسْتَها روضـةً ما بينَ صفراءَ وخضراء .
يلومُني عمروٌ على إصبـــعٍ نمّتْ عليّ السِرَّ خرساء . [3]
للناس حاجاتٌ ، ومنِي الهـوى (يموت) شيء بعد أشيـاء . [4]
بل أيهـا المهجورُ من رأيـهِ ، اعتِبْ أخاً واخرُجْ عنِ الداء . [5]

---

(١) لعب الدهر على هامتي (رأسي) ؛ مرت علي خطوب وأهوال (وشاب شعري) .

(٢) ان كنت حرباً لهم : من أنصارهم (أنصار أعدائي) ؟ تدافعين عنهم وتقاتلين خصومهم . ... فانظري الي بانصاف .

(٣) نمت علي السر خرساء : أصبع خرساء دلت على سري(؟) .

(٤) « يموت » اضافة مني (محلها في الديوان بياض) . شيئاً بعد أشياء : شيئاً فشيئاً .

(٥) اعتب أخاً : أرضه (اجعله يرضى) . واخرج عن الداء : اترك اغضاب الناس والحقد عليهم .

من تأخذ النارُ بأطرافــــه   يَنْضَحْ على النار من الماء . (١)
أنتَ امرُؤٌ في سُخْطِنا ناصِبٌ   ومِن هَوانا نازحٌ نــاء . (٢)
كأنمـــا أقسمـــتَ لا تبتغي   برّي ولم تَحفِلْ بإيتـــائي .
وإن تَعَلّلْتُ إلى زَلّــــة   أكلْتُ في سبْعة أمعاء . (٣)
حسَدتّني حينَ أصبتُ الغِـنى   ما كنتَ إلا كابنِ حوّاء . (٤)
لاقى أخاه مُسْلِماً مُحْرِمــاً   بطَعْنة في الصُبْح نجلاء . (٥)
وأنتَ تَلْحاني ، ولا ذنبَ لي   وكم ترُى حمّالَ أعبائي . (٦)
كأنّمـــا عاينتَ بي عائِفــاً   أزْرقَ من أهلِ حَروراء . (٧)
فارْحَلْ ذميماً أو أَقِمْ عائذاً ؛   مُلّيتَ من غِلٍّ وأدواء . (٨)
لو كنتَ لي سيفاً غداة الوغـــى   طِبْتُ به نفساً لأعدائي ، (٩)
أو كنتَ نفسي جُمّعَتْ في يدي   ألْفَيْتَني سمحاً بإلقاء . (١٠)

---

(١) من تعلق النار به يحاول اطفاءها (كل انسان يريد أن يدافع عن نفسه).
(٢) في سخطنا ناصب : منتصب تريد اسخاطنا (اغاظتنا) . نازح وناء : بعيد.
(٣) تعللت (بالفتح أو بالضم ؟) . أكلت في سبعة أمعاء : أكلت كثيراً (المعنى غير واضح عندي) .
(٤) أصبت الغنى : نلت الغنى (أصبحت غنياً) . كابن حواء (أي حسود مثل جميع البشر) .
(٥) محرم : في الحج . في الصبح : علنا . نجلاء : واسعة .
(٦) تلحاني : تشتمني ، تلومني . ... وكثيراً ما كنت تحمل أعبائي (تدافع عني) .
(٧) تنظر الي كأني من الأزارقة الخوارج (والأزارقة متطرفون يرون أن جميع مخالفيهم مشركون يجب قتلهم وقتل نسائهم وأطفالهم) . حروراء (بلد في جنوبي العراق ظهر فيه الأزارقة) . عائفاً : كارهاً ....
(٨) عائذ : ملتجيء . مليت : امتلأت (وان كنت قد امتلأت من الغل ، البغض لنا والأدواء ، أي أسباب الكره لنا (؟) .
(٩) و (١٠) – أنت مكروه عندي حتى لو أنك كنت سيفاً لي ، وكان أعدائي يريدون قتالي ، لتخليت عنك لأعدائي . ولو كنت روحي التي أعيش بها لألقيتها عني بطيبة خاطر .

ـ وقال بشّارٌ في عبدةَ :

مرّ من هذه القصيدة في هذه الدراسة عددٌ من الأبيات . ولكني رأيتُ أن أثبتَ القصيدة هنا كلّها لشهرتها . لمّا تزوّجتْ عبدةُ خرج بها زوجُها من البصرة إلى عُمَانَ (بضمّ ففتح بلا تشديد) ـ عند الطرف الجَنوبي الشرقي من شبه جزيرة العرب . ولعلّ هذه القصيدة ملفقةٌ من قطعتين في عبدةَ وفي سُعدى (راجع ديوان بشار ١ : ١٧٨ ـ ١٧٩ ، في الحاشية ، وراجع ، فوق ، ص ١١٧ ـ ١١٨) :

لقد زادني ما تعلمين صَبابــةً ... إليك ، فللقلبِ الحزين وَجيبُ .(١)
وما تُذكَرين، الدهرَ ، إلاّ تهلّلتْ ... لعينيّ من شوقٍ اليك غُروب .(٢)
أبيتُ وعيني بالدموع رهينــةٌ ... وأُصبح صبّاً والفؤاد كئيب .
إذا نطق القومُ الجلوسُ فإنّــني ... مُكِبٌّ كأني في الجميع غريب .
يقولون: داء القلب جِنٌ أصابه. ... وداؤي غزال في الحِجال ربيب.(٣)
إذا شئت هاجَ الشوقُ واقتاده الهوى ... اليك من الريح الجَنوبِ هُبوب .(٤)
هوى صاحبي ريحُ الشَمال إذا جرتْ ، ... وأشفى لقلبي أن تهُبَّ جَنوب .
وما ذاك إلا أنها حين تنتهــي ... تَناهى وفيها من عُبيدةَ طيب .
واني لمُستشفي عبيدةَ ، إنهـــا ... بدائي ـ وان كاتَمْتُه ـ لَطبيب.(٥)
كقارورةِ العطار ، أو زادَ نعتُهـا ... تلين إذا عاتَبْتَها وتطيب .

---

(١) الصبابة : الشوق ، الحب . الوجيب : الخفقان . ما تعلمين (ارتحالك عن البصرة بعد زواجك)
(٢) الغرب (بفتح فسكون) : جانب العين (من حيث يسيل الدمع). إذا ذكرتك اشتد بكائي.
(٣) الحجلة (بفتح ففتح) : ستر تكون المرأة وراءه (كناية عن شرفها وصونها) . ربيب : ناشىء .
(٤) .... وحلت عبدة مع زوجها إلى جنوب البصرة ، ولذلك يذكر بشار تلك الريح كثيراً .
(٥) لمستشفي عبيدة : طالب شفائي (مداواتي) من عبدة . وان كاتمته (سترته لشدته وكراهة التصريح به للناس) .

لقد شَغَلَتْ قلبي عُبيدةُ في الهوى فليس لأخرى في الفؤاد نصيب .
ألا تتّقينَ اللهَ في قتلِ عاشقٍ له حين يُمسي زفرةٌ ونحيب .
يقطّع من أهل القرابة وُدَّه فليس له إلا هواكِ نسيب .
تُمنّينني حُسنَ القضاء بَعيدةً وتَلْوينني دَيْني وأنت قريب .[1]
فوالله ، ما أدري : أتجحَدُ حُبّنا عبيدةُ أم تَجزي به فتُثيب ؟[2]
واني لأشقى الناسِ إن كان حُبُّنا خصيباً ومُرتادُ الجَناب جَديب .[3]
وقائلة إن مِتَّ في طلب الصِبا فلا بدَّ أن تُحصي عليك ذنوبُ .[4]
فرُمْ توبةً قبلَ الممات ، فإنني أخاف عليك الله حين تَؤوب .[5]
تكلّفُ إرشادي ، وقدشاب مَفرِقي وحمّلني أهلي فليس أريب .[6]
فقلت لها : لم أجن في الحب بيننا أثاماً على نفسٍ . فمِمّ أتوب ؟[7]
أرانا قريباً في الجوارِ ، ونلتقي مِراراً ولا نخلو ؛ وذاك عجيب .
ألا ليت شعري ، هل أزورُك مرة وليس علينا ، يا عُبيدَ ، رقيب ،
فنشفي فؤادَينا من الشوق والهوى فإن الذي يشفي المُحِبَّ حبيب .[8]
وما أنسَ ممّا أحدث الدهرُ للفتى وأيامه اللاتي عليه تنوب ،[9]

---

(١) إذا كنت بعيدة عني وعدتني بالوصال ، وان اجتمعنا لويتني (مطلتني ، أخلفت وعدك) .
(٢) أتنكر عبيدة (عبدة في المستقبل) أننا كنا حبيبين أم تذكر ذلك وتحسن الي بالوصال ؟
(٣) حبنا شديد ولكن لا نتيجة له .
(٤) إذا مت وأنت مصر على حب عبدة مصرّ على لقائها فسيعد عليك ذلك ذنباً ، لأن موتك من الحب يعد انتحاراً (والانتحار في الإسلام حرام) .
(٥) تؤوب : ترجع (إلى الله يوم القيامة) .
(٦) تكلف (تلك القائلة) ارشادي=تتكلف هدايتي.وحملني أهلي فلست أريب : لست مريباً(ذا ذنب).
(٧) اثام (بالفتح أو بالكسر) يقصد بها الذنب .
(٨) ... لا يشفي المحب (مفعول به) من دائه إلا حبيبه .
(٩) تنوب : تأتي عليه بالمصائب .

فلستُ بناسٍ من رُضا بِكَ مَشْرَباً وقد حان من شمس النهار غروب .
فبِتُّ بما زوّدتَني ، وكأنـني من الأهل والمال التِلاد حَريب.(١)
إذا قلتُ يُنْسِينيكِ تغميضُ ساعةٍ تعرّض أهوالٌ لكم وكُروب . (٢)

– وقال في العتابِ والنسيب أيضاً معَ شيء من الهجاء . والقصيدة في « سلمى » ، وهي جاريةٌ كان بشّارٌ يُحبّها ، وكانت تسكنُ بالرَوْحاء ، في جواره. ثمّ إنّ مَوْلاها وَهَبها لصاحبٍ له من أهلِ الشام اسمه واهبٌ، فسارَ بها واهبٌ إلى بَلَدِه :

للهِ سَلمى حُبُّها ناصـبُ ، وأنتَ لا زوجٌ ولا خاطبُ . (٣)
لو كنتُ ذا أو ذاك يوم النـوى أدّى إليّ الحلَبَ الحالب . (٤)
أقولُ والعين بها عـبرةٌ وباللسان العجَبُ العاجب ، (٥)
يا وَيْلَتا ، أحْرَزَها واهـبٌ لا نال خيراً بعدَها الواهبُ . (٦)
سيِقَتْ إلى الشامِ ، وما ساقَهـا إلاّ الشقا والقَدَرُ الغالب .
يا كاهنَ المِصْرِ ، لنا حاجـةٌ ، فانظُرْ لنا : هل سَكَني آيبُ ؟ (٧)

---

(١) التلاد : القديم (الموروث) . حريب : محروب (محروم منه ، مساوب مني).
(٢) إذا قلت إنني إذا نمت نسيت شيئاً من عذابي في حبك ، رأيت في منامي أهوالا من حبك.
(٣) ناصب : متعب .
(٤) ذا أو ذاك (زوجاً أو خاطباً) . النوى : البعد ، البعاد (الفراق) . أدى الي : أعطاني . الحلب : الحليب (اللبن المحلوب) ... لكانت عبدة حقاً لي دون غيري.
(٥) عبرة : دمعة . باللسان العجب العاجب (اعتقاله عن الكلام أو كثرة الكلام بلا ضابط) .
(٦) واهب (زوج سلمى) اسم علم . الواهب (اسم فاعل : سيدها الذي زوجها واهباً) .
(٧) المصر : البلد الكبير (هنا : البصرة) . كاهن المصر : المنجم ، العارف بالأمور . السكن : من يسكن الانسان اليه . والسكن : الزوجة ، آيب : راجع .

قد شَفَّني الشوقُ إلى وَجْهِها وشاقَني المزهر والقاصب .[1]
وقد أرى سَلْمى لنا غايةً أيّامَ يجري بينَنا الآدب .[2]
غَنّى بها الراكبُ في حُسْنِها ومِثْلُها غنّى به الراكب .[3]
ليستْ من الإنس ، وإنْ قُلْتُها جِنيّةٌ ، قيل : الفتى كاذب .[4]
لا بلْ هِيَ الشمسُ أُتيحتْ لنا وسواسَ همٌّ زَعَمَ الناسب .[5]
لو خرجَتْ للناسِ في عيدهم صلّى لها الأمردُ والشائب .[6]
أراجِعٌ لي بعضُ ما قد مضى بالمَيْثِ أم هِجْرانُها واجب .
قد كنتُ لا ألوي على خلّةٍ ضَنّتْ، ولا يَحْزُنُني الذاهب.[7]
وصاحبٍ ليس يُصافي النَدى يسوسُ مُلكاً وله حاجب .[8]
لمّا رأيت البُخلَ رَيْحانَه والجودُ من مجلسهِ غائب .[9]
ودّعْتُه . إنّي امرُؤٌ حازم عنه وعن أمثالهِ ناكب .[10]

---

(١) شفني : أنحلني . شاقني المزهر بكسر الميم والقاصب (اشتاق إلى كلامها الذي يشبه صوت المزهر أو العود وصوت القاصب الذي ينفخ في المزمار) .
(٢) الآدب : الذي يقيم مأدبة (دعوة إلى طعام) . أيام يجري بيننا الآدب : كثيراً ما كان يأتي الي من يدعوني إلى بيتها ، أو من أرسله ليدعوها إلى بيتي .
(٣) مثلها يستحق أن ينشر خبر جمالها في البلاد .
(٤) إن قلت إنها جنية ، قالوا : كذبت (لأنها أجمل من الإنس ومن الجن) .
(٥) الناسب : الذي يعرف أنساب الناس. وسواس هم : نحبها ولا نستطيع الوصول اليها (كالشمس).
(٦) فتن بها الشاب والشيخ (الذي انقضى عهد غرامه) . صلى لها الأمرد والشائب (نسوا صلاة العيد وفتنوا بها).
(٧) كنت لا أهتم بهجران محبوبة غيرها ، ولا أهتم بمن يترك البصرة .
(٨) وصاحب : جار (هو سيد سلمى الذي زوجها برجل اسمه واهب) . ليس يصافي الندى : ليس كريماً بل بخيل . له ملك كثير ولكن له حاجباً يحول بين الناس وبين ما يملك .
(٩) البخل ريحانه (ورده الذي يشمه) : مغرم بالبخل .
(١٠) ناكب : متجنب ، مفارق .

أُصفي خليلي ، ما دَجا ظِلّــه ودام لي من وُدِّه جانب .
لا أعبُد المالَ إذا جـــاءني حقُ أخٍ أو جاءني راغب .
ولستُ بالحاسبِ بَذْلَ النّــدى إنّ البخيلَ الكاتبُ الحـاسب .
كذاك يَلْقاني . ورُبَّ امــرِئٍ ليسَ له فضلٌ ولا طالب . (١)

— وقال ، ينتسبُ إلى الفرس ويفتخر بهم ويذكرُ مساعدةَ الفرس لبني العبّاس على نَيْل المُلك ثم يفتخر بالإسلام ويجعلُ المُلكَ في آل الرسول . وفي هذه القصيدة إشادةٌ بالاسلام من جانبٍ ثمّ شُعوبيّة شديدة من جانبٍ آخرَ :

هل من رسولٍ مُخــــبرٍ عني جميعَ العــربِ ،
من كـــان حيّــاً منهمــو ومن ثوى في التُرب ، (٢)
بأنـــني ذو حســـبٍ عالٍ على ذي الحسب : (٣)
جَدّي الذي أسمــــو بــه كِسرى، وساسانُ أبي . (٤)
وقيصرٌ خـــــالي إذا عَدَدتُ يوماً نَسَبي . (٥)
كم لي وكم لي مـــن أبٍ بتاجـــه معتصـــب ،
أشْوَسُ في مجلِســــه يُجثى لــه بالرُكَب . (٦)
يغــدو إلى مجلســـــه في الجوهر الملتهب . (٧)
لم يُسْــقَ أقطابَ سِقـىً يشرَبُها في العُلــب . (٨)

(١) من الناس من لا يملك شيئاً ولذلك لا يطلب الناس منه شيئاً .
(٢) ثوى (مكث) في الترب (جمع تربة : القبر ، المقبرة) : مات .
(٣) الحسب : العمل الجليل . أعمال قومي أفضل من أعمال جميع الناس .
(٤) أسمو به : أعلو به على غيري . كسرى وساسان من ملوك فارس .
(٥) قيصر : ملك الروم . (أمي أيضاً من أسرة مالكة) .
(٦) الأشوس الذي ينظر بمؤخرة عينه تكبراً على الناس (لأنه ملك) . ... يركع الناس بين يديه .
(٧) بالجوهر الملتهب (الكثير اللمعان) : بتاجه .
(٨) .... لم يشرب القطيب (الحليب الممزوج بالماء) في علبة (إناء من جلد) أي لست من قوم بدو فقراء .

ولا حـــدا قــطّ أبي خلف بعير جرَب . (١)

ولا أتـــى حَنْظلـــةً يثقُبُهـــا من سَغب . (٢)

ولا شُويْنـــا وَرَلاً مُنَضْنِضاً بالذنـــب . (٣)

إنّـــا ملوكٌ لـــم نـزلْ في سابقاتِ الحِقَبِ . (٤)

نحن جَلَبْنـــا الخيـلَ من بَلْخٍ بغيرِ الكذب ، (٥)

حتى سَقَيْناهـــا ، ومـــا نَبْدَهُ ، نَهْرَيْ حلب . (٦)

حتى إذا مـــا دوّخـت بالشام أرضَ الصلب ، (٧)

سِرْنا إلى مصرَ بهـــا في جَحْفلٍ ذي لَجَب ، (٨)

حتى استلمنـــا مُلْكَهـــا بمُلْكِنـــا المستَلَب . (٩)

وجـــادت الخيـــلُ بنـــا طنجةَ ذاتَ العَجَب ، (١٠)

حتى رددنـــا المُلْكَ فـــي أهـــلِ النـبي العربي .

نغضَـــبُ للـــه وللـ إسلام أشْرى الغضب . (١١)

---

(١) حدا : ساق . جرب : أجرب ، جربان .

(٢) الحنظل : ثمر يشبه البطيخ ولكنه أصغر حجماً ، وهو مر الطعم. السغب : الجوع (وبشار) يقصد : العطش.

(٣) الورل : حيوان يشبه الضب . منضنض : محرك .

(٤) الحقبة (بالكسر) : المدة من الزمن . في سابقات الحقب : منذ زمن قديم .

(٥) بلخ : بلد في أفغانستان (كناية عن الفرس الذين قضوا على الدولة الأموية وأقاموا دولة بني العباس وكانوا رجالها وذوي النفوذ فيها.) .

(٦) سقيناها : جعلناها تشرب (وصلنا بها) . لم نبده (الأغلب بالبناء للمجهول) : لم يحدث في أثناء مسيرنا الطويل (من بلخ إلى حلب) ما كان مستغرباً عندنا مخالفاً لآمالنا .

(٧) دوخ أرض الصلب (؟) أخضع الأرض التي أهلها أشداء .

(٨) الجحفل : الجيش العظيم . اللجب : الصوت (من كثرة السلاح في ذلك الجيش) .

(٩) أخذنا ملك الشام بدلا من ملك فارس الذي كان العرب قد أخذوه منا .

(١٠) طنجة : ثغر في شمالي المغرب على البحر الأخضر (الاطلنطيقي) . جادت (جازت؟) . (كناية عن فتح الأندلس) .

(١١) أشرى : أشد .

أنا ابن فَرْعَيْ فـــارسٍ عنها المُحاميْ العَصَب .[1]
نحن ذوُو التيجـــانِ والـ ـمُلك الأشمّ الأغلب .[2]

– وقال في النسيب ، وكأن هذه القطعةَ جوابٌ على رسالةٍ إلى عبدةَ :

مِـــنَ المشهورِ بالحُـــبِّ إلى قاسيةِ القلـــبِ :
سلامُ الله ذي العـــرش على وَجْهِكَ ، يا حِبّي .[3]
فأمّـــا بعدُ ، يا قُـــرّ ةَ عَيْنَي ومُنى قلبي ،
ويا نفسي التي تسْكُـــــ نُ بينَ الجَنْبِ والجنب ،[4]
لقد أنكرتُ ، يا عبْـــدَ ، جفاءً منْكِ في الكُتْب .
أعَـــن ذنبٍ ؟ ولا والـــ ـهِ ، ما أحدثْتُ من ذنب .
ولا والله ، مـــا في الشـــ ـقِ من أنثى ولا الغرب
سواك اليـــومَ أهواهـــا على جِدٍّ ولا لِعْـــب .

– عتاب واعتذار :

الأبيات الأربعة الأولى عتاب للعاذلة (التي تلوم بشّاراً على مَسْلكِه في الحبّ) . والبيت الرابع دليل على أن هذه الأبياتَ متعلّقةٌ ببشّارٍ . ولكن يمكن أن تكون هذه الأبياتُ الأربعة عِتاباً توجّهه الفتاةُ التي يُحِبّها بشارٌ إلى أمّها (على لسان بشّارٍ) ، يدلّنا على ذلك تلك القرينةُ التي في البيت الثالث : « أُطيعُكِ ما عَطَفْت عَليَّ بِرّاً » . حينئذ يكون الكلامُ ، ابتداءً من البيت السادس ، « التفاتاً » (انتقالاً من ضمير المخاطب أو من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلّم) . وفي هذه القصيدة قِصّة رمزيّةٌ بارعةٌ تُعَبِّرُ فيها الفتاةُ التي يُحِبّها بشّارٌ عن حالِها وقد بَلَغَتْ سِنّ الرُشد . وفي هذه الأثناء تعتذر

(١) العصب : خيار القوم . المحامي العصب (على الاضافة) محامي خيار الناس (عن خيار الناس ، من خيار الناس) .
(٢) الأشم : العالي . الأغلب : الشجاع الغالب .
(٣) الحب (بالكسر) : المحبوب.
(٤) بين الجنب والجنب (جنبي الجسم) : في القلب (من شدة الحب لها).

هذه الفتاة إلى بشّار لأنّها ، في حالِها تلك ، لا تستطيع أن تزورَه . ثمّ هي تُعاتِبَ أُمّها لأنّ أُمّها لا تريدُ أن تُدْرِكَ (الآنَ) حاجةَ ابنَتِها التي بلغتْ سِنّ الزَّواج :

أعاذلَ ، قد نَهَيْتِ وما انتهَيْتُ وقد طالَ العِتابُ وما انْثَنَيْتُ .(١)
أعاذلَ ، ما مَلَكْتُ فأقْسِريني ، وما اللذاتُ إلاّ ما اشْتَهَيْتُ .(٢)
أُطيعك ما عطَفْتِ علَيَّ بِراً ، وإنْ حاولت مَعْصيتي عصيتُ .
أعاذلَ قد كَبِرْتُ وفِيَّ مَلْهىً ، ولو أجرَيْتُ غايتَكِ ارعوَيْتُ .(٣)
لقد نَظَرَ الوُشاةُ إليّ شَزْراً ، ومِنْ نَظَري إليها ما اشْتَفَيْتُ.(٤)
وقالوا : قد تعرّضَ كي يراها وماذا ضرّهُمْ مِمّا رأيتُ ؟
ومَا كَلّفتُها إلاّ جَميلاً ولا عاهدتُها إلاّ وَفَيْتُ .
ويومَ ذَكَرْتُها في الشَرْب إنّي
– إذا عَرَضَ الحديثُ بها اعتدَيْتُ –(٥)
شَرِبْتُ زُجاجةً وبَكَيْتُ أُخرى فراحوا مُنْتَشينَ وما انتشيتُ .(٦)
وما يَخْفى على النُدَماء أنّي
أُجيدُ بها الغِناءَ وإنْ كَنَيْتُ .(٧)

---

(١) عاذل : منادى مرخم (حذف آخره – هنا التاء المربوطة علامة التأنيث . والفتحة على اللام أصلية وليست علامة للإعراب) . انثنى : رجع (ترك ما كان فيه) .

(٢) ما ملكت : ما استطعت . اقسريني : امنعيني (بالقوة) .

(٣) تقدمت بي السن وما يزال في قوة على متابعة اللهو . أجريت غايتك : نفذت ما ترغبين فيه . ارعوى : رجع ، ترك ما كان يفعله .

(٤) شزرا : بطرف عيونهم (بغضب) ... وأنا لم أكتف من النظر إلى محبوبتي .

(٥) ذكرتها : تذكرتها . الشرب : الذين يشربون الخمر معاً . إذا عرض بها الحديث (إذا مر ذكرها في أثناء الكلام ، من غير قصد) اعتديت (تجاوزت ذكرها : لم أذكرها كيلا يعلموا أني أحبها) .

(٦) شربت زجاجة (خمر – كما شرب كل نديم من الندماء زجاجة مثلها) وبكيت أخرى (بدمع يملأ زجاجة – قنينة) . فانتشى (سكر ندمائي بما شربوا – لأنهم كانوا مسرورين – ولم أنتش أنا ، لشدة حزني) .

(٧) ... يعلم ندمائي أني أحسن الغناء (الغزل) بمحبوبتي ، وان كنت (هذه المرة) أكني عنها (أشير اليها إشارة مختصرة) .

وأتْبَعْتُ المُنى بنِجــاد « لَيْت »
وما يُغْني عن الطَّرَبات « ليتُ » ؟[1]
وجاريةٍ يسورُ بنــا هواهــــا كما سارتْ مُشَعْشَعةٌ كُميتُ .[2]
يُزيِّنُ وجهُها خَلْقاً عَميمــا وزيَّنَ وجهَهاحَسَبٌوبَيْتُ .[3]
إذا قَرُبَتْ شَفَيْتُ بهــا سَقامــاً
على كَبِدي، وإن شَحَطتْ بَكَيْتُ .[4]
نَسَجْتُ لهــا القريضَ بماء وُدِّي
لِتَلْبَسَه وتَشْرَبَ ما سَقَيْتُ .[5]
ودَسَّتْ في الكِتــاب إليَّ أنِّــي
– وقَيْتُكَ –لو أرىخَلَلاً مَضَيْتُ،[6]
على ما قد عَلِمْتَ جُنونُ أُمّي
وأعيُنُ إخوتي مُنْذُ ارْتَدَيْتُ .[7]
يقولونَ : انْعَمي . ويَرَوْنَ عاراً
خُروجي إنْ رَكِبْتُ وإنْ مَشَيْتُ .[8]

---

(١) نجاد (؟) الطربات (؟) . ليت : حرف للتمنّي (مشبه بالفعل : ينصب الاسم ويرفع الخبر – وهو هنا مستعمل « اسماً ») – تمني الأشياء لا يفيد .
(٢) الجارية : الفتاة الصغيرة . سار يسور : دار واشتد ، أثر . الكميت : الخمر (الحمراء) . المشعشعة : الممزوجة بالماء .
(٣) الخلق (بالفتح) : صورة الجسم . العميم : ذو البسطة (الجسم الكبير الملآن) . الحسب : العمل الكريم . البيت : الأسرة ذات الأصل الكريم القديم .
(٤) شحطت : ابتعدت .
(٥) القريض : الشعر . – لتلبسه (لتفتخر به بين مثيلاتها) ؟ وتشرب ما سقيت : لتسر به (؟) .
(٦) الكتاب : الرسالة . وقيتك : حفظتك من الأذى(فديتك بنفسي) . خللا : ثغرة (في الحراسة علي) فرصة (لزيارتك) . مضيت : ذهبت (لزيارتك) .
(٧) جنون أمي : شدتها في معاملتي . وأعين (رقابة) إخوتي منذ ارتديت (لبست الثياب الخاصة بالفتيات اللواتي بلغن مبلغ النساء.) .
(٨) انعمي : تمتعي بالنعيم (والهدوء وأنت في البيت) . ركبت (في التنقل مع أهلي) أو مشيت (انتقلت من مكان إلى مكان وحدي) .

ومن طَرَبي إليكَ خَشَعْتُ فيهم
كما يتَخَشّعُ الفَرَسُ السُكَيْتُ . (١)

وقـد قامتْ وَليدَتُهـا تُغنّـي
عَشيّةَ جاءها أنّي اشتكَيْتُ . (٢)

تقول ودُفُّهـا زَجَلُ النواحي .
إذا أُمّي أبَتْ صلتي أبَيْتُ . (٣)

دعاني من هَوَيْتُ فلـم أجِبْهُ ،
ولو أسْطيعُ حينَ دعا سَعَيْتُ . (٤)

ألا يا أُمّتـا ، لا كنت أمّاً ،
أأُمْنَعُ ما أُحِبُّ وقد غَلَيْتُ ؟ (٥)

أمِنْ حجَرٍ فُؤادُك أمْ حديدٍ
وما يدري العَشيرُ بما دَرَيْـتُ ؟ (٦)

وما تَرْثينَ لي مِمّـا ألاقـي ،
وانّي لو عَشِقْتِ ، إذَنْ ، رَثَيْتُ . (٧)

---

(١) وبسبب طربي (فرحي بك ، حبي لك) خشعت (ذللت) فيهم (بينهم) . معرفتهم بأني أحبك تجبرني على أن أخضع لهم وأكتم حبي لك . السكيت (بضم السين ثم بفتح الكاف أو بتشديدها مع الفتح) : الفرس الذي يأتي آخراً في الحلبة (عند السباق) .

(٢) الوليدة : الجارية (الخادم) . اشتكيت : مرضت .

(٣) زجل (صوت مرتفع) النواحي (جمع ناحية) : يسمع في كل مكان . أبى : رفض . صلتي : اتصالي بك .

(٤) هويت : أحببت . أسطيع (أستطيع) .

(٥) غلت القدر تغلي : فارت ، ارتفعت حرارتها إلى درجة الغليان . غليت (بلغ نشاطي الجسدي ذروته) .

(٦) العشير والعشيرة : أقارب الانسان (من جانب أبيه) . وما يدري العشير ... ولا يعلم أحد من أقاربي أني أصبحت في سن الزواج .

(٧) رثى له : أشفق عليه (وبلغه مناه) . لو عشقت (يا أمي) ...

المصادر والمراجع

- بشار بن برد : شعره وأخباره ، جمعه وشرحه أحمد حسنين القرني ، القاهرة (المكتبة العربية) ١٩٢٥ م .
- ديوان بشّار بن برد لناشره وشارحه ومكمّله محمّد الطاهر بن عاشور (علّق عليه محمّد رفعت فتح الله ومحمّد شوقي أمين) ، القاهرة (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٣٦٩ — ١٣٧٦ هـ = ١٩٥٠ — ١٩٥٧ م .
- بشّار بن برد : أخباره وشعره (لكرم البستاني) ، بيروت (مكتبة صادر) ١٩٥٠ م .
- ديوان بشّار بن برد (من قافية الهمزة والألف إلى قافية الباء) ، اعتنى بجمعه محمّد بدر الدين العلويّ ، بيروت (دار الثقافة) ١٩٦٣ م .
- بشّار بين الجد والمجون ، تأليف أحمد حسين منصور ، القاهرة ١٩٣٠ م (المطبعة الرحمانية) .
- بشّار بن برد ، تأليف ابراهيم عبد القادر المازني ، القاهرة (دار إحياء الكتب العربية) ١٩٤٤ م .

— بشّار بن برد ، تأليف طه الحاجري ، بيروت (دار المعارف) بعيد ١٩٥٠ م .

— بشار بن برد ، تأليف محمد علي الطنطاوي ، دمشق (مكتبة عرفة) ١٩٢٩ .

— المختار من شعر بشّار للخالديين (نشره محمد بدر الدين العلوي) ، مصر (مطبعة الاعتماد) ١٩٣٤ م .

— بشّار بن برد ، تأليف عبد القادر المغربي ، القاهرة (لجنة دائرة المعارف الإسلامية) ١٩٤٤ م .

— بشار بن برد ، تأليف محمد النويهي ، القاهرة (مكتبة النهضة المصرية) ١٩٥١ م .

— مصادر الدراسة الأدبية ، تأليف يوسف أسعد داغر ، صيدا — لبنان (مطبعة دير المخلص) ١٩٥٠ م (الجزء الأول ، ص ٩٤ — ٩٦ مراجع مفصلة من الكتب والمجلات) .

راجع أيضاً تاريخ الأدب العربي للمؤلّف (٢ : ٩٢ — ٩٦) ففيه مصادر ومراجع جانبية .

ابن خلكان — وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لاحمد بن خلكان ، دار الطباعة المصرية ، القاهرة ١٢٧٥ ﻫ .

ابن قتيبة — كتاب الشعر والشعراء لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، لندن ١٩٠٢ (١٩٠٤) .

البيان والتبيين — البيان والتبيين للجاحظ ، حققه حسن السندوبي ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٣٥١ ﻫ = ١٩٣٢ م .

تاريخ بغداد – تاريخ بغداد لاحمد بن علي الخطيب البغدادي ، القاهرة ١٩٣١ – .

الثعالبي – فقه اللغة ، لأبي منصور الثعالبي ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٣٤١ –١٩٢٣ .

الحيوان – كتاب الحيوان للجاحظ ، بتحقيق عبد السلام محمد هرون ، القاهرة ١٣٥٦ هـ = ١٩٣٨ م .

الخالديان – المختار من شعر بشار ، القاهرة (١٣٥٣ هـ = ١٩٣٤ م) .

الخفاجي – شفاء الغليل في ما في كلام العرب من الدخيل ، لشهاب الدين أحمد الخفاجي ، مصر ١٣٢٥ هـ .

زهر الآداب – زهر الآداب وثمر الالباب لأبي اسحق الحصري القيرواني ، طبعه الدكتور زكي مبارك ، المكتبة التجارية .

الصولي – أخبار أبي تمام ، تأليف أبي بكر محمد بن يحيى الصولي القاهرة ١٩٣٧ .

الطبري – تاريخ الرسل والملوك لمحمد بن جرير الطبري ، ليدن ١٨٧٩ .

العمدة – العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيرواني ، المكتبة التجارية، الطبعة الاولى، القاهرة ١٣٥٣هـ = ١٩٣٤م.

غ – كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، طبعته دار الكتب (الأجزاء١ – ١٠) والطبعة الأميرية (الأجزاء ١١ – ٢٠) وليدن (الجزء ٢١) .

الفخري – الفخري في الآداب السلطانية لابن الطقطقي ، المطبعة الرحمانية ١٩٢٨ .

الفهرست – كتاب الفهرست لابن النديم ، ليبزغ ١٨٧١ .

الكامل — كتاب الكامل في اللغة والادب لأبي العباس محمد المبرّد ، ليبزغ ١٨٦٤ م .

معجم الشعراء — معجم الشعراء لأبي عبد الله محمد المرزباني ، القاهرة ١٣٥٤ ه .

الموشح — الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء .

Bouvat — Le Barmécides, par L. Bouvat (Extrait de Revue du Monde Musulman, 6e Année vol. XX, septembre) .

Enc. Isl. — Encyclopaedia of Islam (Eng. edition).

Fraenkel — Die aramaeischen Fremdwoerter im Arabischen, von Siegmund Fraenkel, Leiden 1886.

Gabrieli — Appunti su Bassâr b. Burd (Bulletin of the School of Oriental Studies, University of London 1937, vol. IX, part I), per Francesco Gabrieli.

GAL — Geschichte der arabischen Litteratur, von Carl Brockelmann, zwei Baende, Weimar 1898, 1902.

GAL, Suppl. — Supplementband zur GAL, drei Baende, Leiden 1937 — 42.

Johnson — A Dictionary of Persian, Arabic & English, by Francis Johnson, London 1952.

JRAS — Journal of the Royal Asiatic Society.

Bassâr (Bachchâr) et son expérience courtoise — Les vers à Abda : texte arabe, traduction et lexique, par André Roman, Beyrouth (Dar al-Machreq, éditeurs) 1972 (Recherches publiées sous la Direction de l'Institut de Lettres Orientales de Beyrouth. Nouvelle Série, A. Langue arabe et pensée islamique, Tome V).

R. Blachère — Enc. Isl. (new Eng. ed.) I 1080-82; (Nouvelle éd. fse.) I 1112-1114.

وسوى ذلك من المصادر والمراجع العارضة والمبثوثة في الحواشي.

فهرست الموضوعات

الصفحة

مقدّمة : مصادر ومراجع لدراسة شعر بشّار ٧
فاتحة العصر العبّاسيّ : انتقال الشعر من البداوة المصطنعة إلى الحضارة المطلقة
احتكاك العرب بغيرهم من الأمم ـ الزواج بغير العربيات ـ التعرّب ـ السكنى في الحضر ـ الدولة والحكومة ـ خصائص الأدب الجديد عموماً والشعر خاصّة ١٩
موجز ترجمته ٣٤
خصائصه الفنّيّة عامّة ٦١
خصائصه المعنويّة ٦٦
خصائصه اللفظية ٧٧
فنون شعره في النثر والشعر ٨٥
فنون شعره خاصّة :
فخره ٨٨
المديح ٩٢
الرثاء ١٠٠

الصفحة

الاعتذار والعتاب والوعيد	١٠٣
الهجـــاء	١٠٧
الهجاء القبلي	١٠٩
الهجاء الشخصي	١١١
العتاب والنسيب	١١٥
الغزل والمجون	١١٩
الوصف	١٣٠
الأدب والحكمة	١٤٠
مختارات من شعر بشار	١٤٣
المصادر والمراجع	١٥٥

هذه
السلسلة

تعالج آثار نفر من أعلام الأدب والعلم والفلسفة بأسلوب جدّي واضح. وهي تعتمد النصوص في المرتبة الأولى مع الاشارة إلى مظانها في مصادر الثقافة. ومع أنّ هذه الدراسات قد قصد بها الدارسون وهم على عتبة التخصّص، فإنها مفيدة للقارىء العام، كما أنها تضع في يد المتخصّص منهاجاً واضحاً للتوسّع في الدراسة. وفي هذه الدراسات دقّة في التفكير وصحة في التعبير مما يحتاج إليه المتعلّم المبتدىء ويطمئن إليه طالب الاختصاص. وهذه السلسلة بتنوّع موضوعاتها تلبّي طلب الأديب وطالب العلم ودارس الفلسفة وتخطّ للدراسات المقبلة طريقاً صحيحاً كما أنها توجز الجهود الماضية التي قام بها أساطين التاريخ ونقّاد الأدب ورجال العلم. ولقد أوجز مؤلفها في الكلام ليترك المجال فسيحاً للفكر. ان عالمنا الحاضر متجّه بسرعة إلى الجانب الفكري وإلى الثقافة الشاملة

الثمن ٨ ل. ل. أو ما يعادلها